تاريخ ما بين السطور
غزوة تبوك

رمضان مصطفى سليمان

جيش النور في أتون القيظ

لم أكن أتصوّر وأنا أقف على حافة الخيال أن للبطولة وجهاً يفيض بالسكينة ، ولا أن للدموع هيبةً تعلو على صليل السيوف. كنت أرقب جيشاً لا يشبه الجيوش ، جيشاً لا تُقاس خطاه بعدد ، ولا تُوزن عزيمته بعتاد ، بل يُقاس بما في الصدور من يقين ، وبما في الأرواح من صفاء.

كنت أتأمل قائده ، وأحاول – عبثاً أن أحيط بشيء من سرّه. ثم أعود لأنظر إلى جنوده ، فأشعر بأن قلبي يرتجف في صدري ، وكأن بين أضلعي ناراً من الخشوع لا من الخوف. فتنساب الدموع ، لا حزناً ، بل إجلالاً؛ لا ضعفاً ، بل انبهاراً.

ما بالك بجيشٍ يقوده خير البشر ؟

ما بالك برجالٍ إذا ذُكر الله اقشعرت جلودهم، وإذا تُليت عليهم آيات الرحمن خرّوا سجداً وبكياً ؟

أي سرٍّ هذا الذي جعل من بشرٍ عاديين قمماً من نور ؟ أي نارٍ هذه التي أحرقت فيهم شهوات الدنيا ، وأبقت جذوة الإيمان وحدها متّقدة ؟

كان الحرّ يومها سيّداً لا يُنازع . شمسٌ كأنها تُفرغ غضبها على الرمال ، ورياحٌ ساخنة كأنها أنفاس جمرٍ حيّ ، وصحراء لا ترحم من وطأها.

سبتمبر في الحجاز؛ ليس مجرد شهر. إنه امتحان.

هناك، حيث لا ظلّ إلا ما صنعته الأوهام ، ولا ماء إلا ما خبّأته الرجاء في القلوب ، خرج أولئك الرجال. لا لأنهم لا يشعرون بحرارة الشمس ، بل لأن في صدورهم حرارةً أخرى ؛ حرارة العقيدة.

X

وقف أحدهم شابٌ لم يتجاوز ربيع العمر ينظر إلى الأفق ، وقد تسرّبت إلى قلبه لحظةُ ضعفٍ إنساني.

قال في نفسه :

إلى أين نمضي ؟ أإلى الروم ؟ إلى تلك القوة التي لا تُقهر ؟ وهل نحن إلا قلة ؟ وهل نحن إلا بشر ؟

ثم سكت ؛ كأنما سمع صدى صوته يرتدّ إليه محمّلاً بالهزيمة.

اقترب منه صاحبه ، وقد قرأ في عينيه ما لم يقله لسانه.

أراك شارد الذهن يا أخي ، أفي قلبك شيء ؟

تنهد الشاب ، و قال بصوت خافت :

أخشى أن أكون ضعفت ؛ أخشى أن يكون في صدري شيء من خوف .

ابتسم صاحبه ، لا سخريةً ، بل رحمة :

ومن منا لا يخاف ؟ لكن السؤال : ماذا تفعل بخوفك ؟ أتبني به جداراً يمنعك ؛ أم جسراً يعبر بك ؟

سكت الشاب ، كأن الكلمات أصابت شيئاً عميقاً فيه.

أما سمعت قول الحكيم ؟ إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن لكل خافقة سكونا

ثم أضاف وهو يشير إلى صفوف الجيش :

انظر إليهم ؛ أترى فيهم من لا يخاف ؟ لكنهم اختاروا أن يكون خوفهم سلّماً إلى الله ، لا قيداً يشدّهم إلى الأرض .

X

وفي مكان قريب ، كان رجلٌ آخر يناجي نفسه بصمتٍ ثقيل.

أأخرج في هذا الحرّ ؟ وقد تركت أهلي ، ومالي ، و ظلّ بيتي ؟ أيعقل أن أستبدل الراحة بالعطش ، والطمأنينة بالخطر ؟

ثم تذكّر ؛ تذكّر ليلةً وقف فيها بين يدي الله ، وتلا آيةً جعلت قلبه يرتجف: [قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم ؛ أحب إليكم من الله ورسوله ؛ فتربصوا؛]

أطرق رأسه ، و قال لنفسه :

أيّ حبٍّ هذا الذي أدّعيه ؟ إن كان لا يصمد أمام شمسٍ حارقة ؟

فرفع رأسه فجأة ، وكأن في داخله قراراً وُلد للتو:

لا ؛ بل أخرج . لا لأني قوي ، بل لأنني أريد أن أكون صادقاً .

X

أما القائد ؛فلم يكن كغيره من القادة.

لم يكن صوته صاخباً ، ولا أوامره قاسية ، بل كان حضوره وحده كافياً ليزرع في القلوب طمأنينةً لا توصف.

كان ينظر إلى أصحابه بعين الأب ، لا بعين القائد . يعرف ضعفهم ، ويعلم مخاوفهم ، لكنه كان يرى فيهم ما لا يرونه في أنفسهم.

وقف بينهم ، وقال بصوتٍ هادئ لكنه نافذ:

إنكم ستلقون عدواً شديداً ؛ فاصبروا ، واحتسبوا ، واعلموا أن الله مع الصابرين .

لم تكن كلماتٍ فقط ؛ كانت وعداً.

وفي تلك اللحظات ، تداخلت الأصوات داخل النفوس.

صوتٌ يقول :

ارجع ؛ فإن الطريق طويل ، والحرّ شديد .

وصوتٌ آخر يهمس:

اثبت؛ فإن الجنة أقرب مما تظن .

وهنا، تبدأ المعركة الحقيقية . ليست مع الروم ؛ بل مع النفس.

قال أحدهم لصاحبه :

أتعلم ما أشدّ من حرارة الشمس ؟

ما هو ؟

حرارة التردد؛ إنها تحرق القلب أكثر مما تحرق الشمس الجلد .

ثم أنشد:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

X

لم يكن خروجهم طلباً لغنيمة ، ولا سعياً وراء مجدٍ دنيوي. كان خروجهم؛ بحثاً عن رضا. رضا الله.

ذلك المعنى الذي لا يُشترى ، ولا يُوهب ، بل يُنتزع انتزاعاً من بين مخالب النفس ، ومن تحت أقدام الشهوات.

كان أحدهم يسير ، وقد جفّ ريقه ، وتشقّقت شفتاه ، لكنه ابتسم.

سأله صاحبه :

ما الذي يضحكك في هذا الحرّ ؟

قال:
تذكرت قولاً سمعته :

من ذاق عرف ، ومن عرف اغترف ؛وأنا اليوم أذوق شيئاً لم أذقه من قبل .

وما هو ؟

لذة التضحية .

وفي زاوية أخرى ، كان رجلٌ يبكي بصمت. اقترب منه صاحبه:
أتبكي ؟

قال:
نعم؛ أخشى أن لا أكون أهلاً لهذا الطريق .

وهل كنا يوماً أهلاً ؟إنما اصطفانا الله برحمته، لا بأعمالنا .

ثم قال بحكمة :

ليس الشأن أن تصل ؛ بل الشأن أن تُقبل وأنت في الطريق .

X

وهكذا ؛ لم يكن الجيش جسداً واحداً فقط، بل كان عالماً من الأرواح، كل روحٍ فيه تخوض معركتها الخاصة.

معركة بين الخوف والرجاء ، بين الدنيا والآخرة ، بين الراحة والتضحية.

أما السؤال الذي ظلّ يتردّد في أعماق التاريخ :

لماذا في هذا الحرّ ؟ لماذا في هذا الوقت ؟

فالجواب ؛ ليس في الجغرافيا ، بل في التربية.

لقد كان ذلك الخروج امتحاناً ؛ امتحاناً يكشف الصادق من المدّعي ، والمؤمن من المتردد . في أوقات الراحة ، يتشابه الناس. لكن في أتون الشدائد ؛ تتمايز الأرواح.

قال أحد الحكماء :

الرجال لا تُعرف في الرخاء، بل في الشدائد.

وكان هذا الجيش ؛ برهاناً حيّاً على تلك الحكمة.

X

وفي نهاية المسير ، لم يكن النصر فقط في لقاء العدو ، بل في الانتصار على النفس.

لقد خرجوا وهم بشر ، وعادوا وهم شيءٌ آخر ؛ عادوا وقد نُقشت في أرواحهم حقيقة لا تزول:

أن الطريق إلى الله ليس مفروشاً بالورود ، بل بالجمر ؛ ومن سار عليه ، إما أن يحترق ؛ أو يضيء.

وأنا ؛ ما زلت أقف ، أتأمل ذلك المشهد البعيد القريب.

أشعر أنني أصغر من أن أفهمه ، وأضعف من أن أعيشه ، لكنني على الأقل أحاول أن أقترب منه بقلبٍ يرتجف.

وأهمس:

اللهم ارزقنا صدقاً كصدقهم ؛ وقلوباً كقلوبهم ؛وعزماً لا تكسِره شمسٌ ، ولا يطفئه خوف .

ثم أنشد ، وكأن الصوت يأتي من عمق الزمن:

إذا الإيمان أضاء فكل دربٍ سيشرق بالنفوس وباليقينِ

وإن ضاقت عليك الأرض يوماً ففي ثقة الإله مدى السكونِ

X

ذلك لم يكن جيشاً عادياً ؛ بل كان فكرةً تمشي على الأرض.

فكرة أن الإنسان ؛ يمكنه أن يكون أكبر من خوفه ، وأقوى من ضعفه ، وأسمى من دنياه.

وما زال السؤال قائماً: هل نحن ؛ منهم ؟

تبوك

اهتزّ عرش الروم بخمسة آلاف روحٍ لا تُقهَر

لم تكن الشمس في ذلك اليوم شمسًا عادية ؛ كانت كأنها عينٌ مفتوحة في كبد السماء ، ترقب الأرض وتختبر صبر الرجال. الرمال تغلي كمرجل ، والريح تحمل أنفاسًا حارقة كأنها زفير التاريخ نفسه وهو يتهيأ ليكتب صفحة جديدة بمداد الدم والإيمان.

في قصره المنيف ، حيث الأعمدة الرخامية تعانق سقوفًا مذهبة ، جلس هرقل ، يطالع خرائط الشام بعينٍ باردة ، لكن في أعماقه كان شيءٌ غامض يتحرك، شيءٌ لم يعهده من قبل.

رفع رأسه ، وقال بصوتٍ يختلط فيه الاستعلاء بشيءٍ من السخرية :

العرب ؟! بخمسة آلاف ؟! أبهذا الجيش يريدون طرق أبواب الشام ؟! إن مفرزةً واحدة من حاميات أقل مدننا شأنًا تكفي لإبادتهم !

ضحك بعض قادته ، فارتد صدى الضحك في القاعة كأصداء زمنٍ يوشك أن يزول.

لكن هرقل 0 رغم ضحكه لم يكن مطمئنًا. كان في داخله صوتٌ خافت ، أشبه بظل فكرة ، يقول له :

لقد تغيّر هؤلاء ؛ منذ مؤتة .

وكان اسم غزوة مؤتة يمر في ذهنه كجرحٍ لم يندمل.

X

في الطرف الآخر من العالم ، حيث لا قصور ولا ذهب ، بل خيامٌ مشدودة على أرضٍ قاسية ، كان الجيش الإسلامي يتحرك ببطء ، لكن بثباتٍ يشبه حركة القدر.

كانت الوجوه مغبرة ، والشفاه يابسة ، لكن العيون ؛ كانت مشتعلة.

اقتربتُ من عمر بن الخطاب ، الذي كان يسير كأنه قطعة من صخرٍ نُحتت لتكون عدلًا وهيبة.

قلت له وأنا أكتم اضطرابًا في صدري:

أيا أبا حفص ؛ أحقًا خرجنا للثأر ؟! ألهذا تركنا المدينة في هذا الحر الذي يكاد يقتل النفوس؟ .

توقف ، والتفت إليّ. كانت عيناه كأنهما ميزان ، يزن الكلمات قبل أن يسمح لها بالمرور.

أيها الفتى ؛ إنك تدس أنفك حيث يجب أن تُهذّب نفسك بالأدب ، خاصة فيما يخص رسول الله ﷺ .

خفضت رأسي ، لكن شيئًا في داخلي دفعني للاستمرار:

يا أبا حفص ؛ لا أزكي نفسي ، ولكنني أقسم لك أن حبي لله ولرسوله لا يقل عن حبك ؛ بل إني أحبك وأُعجب بك .

تغيرت ملامحه قليلًا ، كأن الصخر لان للحظة.

هذا يشفع لك ؛ فاسأل.

تنفست بعمق ، ثم قلت :

لماذا اختار رسول الله ﷺ هذا الوقت ؟ هذا الحر ؟ وما أظننا خرجنا للثأر كما يقول بعض القوم

سكت عمر لحظة ، كأنما يستحضر زمنًا أعمق من اللحظة ، ثم قال:

أما الذين تسمعهم ينادون بثأر مؤتة ؛ فهم أبناء الشهداء وإخوانهم. فلا تلومنهم . إن في صدورهم نارًا لا تُطفأ إلا بالوفاء .

ثم اقترب مني قليلًا ، وخفض صوته :

لكننا ؛ لم نخرج للثأر وحده . نحن خرجنا لشيءٍ أعظم ؛ خرجنا لنقول للعالم إن هذه الدعوة لا تُهزم.

X

في الليل ، حين بردت الرمال قليلًا ، جلستُ بين الجنود . كان القمر شاهدًا صامتًا على قلوبٍ تتصارع بين الحنين والعزم.

سمعت شابًا يقول بصوتٍ متكسر :

والله؛ لأقتلن عشرة من الروم في أبي !

التفتُّ إليه ، فعرفته ؛ إنه أسامة بن زيد ، وعيناه تشتعلان بذكرى زيد بن حارثة.

وفي ناحية أخرى ، كان صوت شاعرٍ يهدر كالسيل :

لأجعلن دماءهم نهرًا يسقي قبر أخي!

إنه حسان بن ثابت ، وقد امتزج الشعر في صدره بالحزن حتى صار سيفًا من كلمات.

ثم رأيت فارسًا يقف ، وقد بدا كأنه جبل يتحرك :

والله ؛ لأمثلن بعشرة منهم في أخي !

إنه علي بن أبي طالب ، وصوته يحمل نارًا لا تخطئها الآذان.

لكن فجأة ، جاء صوتٌ هادئ، كنسمةٍ في وسط عاصفة :

يا أبا الحسن ؛ أما علمت أن رسول الله ﷺ نهى عن المثلة ؟

إنه أبو بكر الصديق.

سكت علي ، كأن الكلمات أطفأت جزءًا من ناره ، لكنه قال :

أعلم ؛ ولكني بشر يا أبا بكر .

فأجابه أبو بكر:

ونحن بشر ؛ لكننا أمةٌ اختارت أن تسمو فوق جراحها ,

X

في تلك الليلة ، لم أستطع النوم . كنت أسأل نفسي :

أأنا هنا للثأر ؟ أم لأمرٍ لا أفهمه بعد ؟

ثم سمعت صوتًا داخليًا ، كأنه أنا ؛ لكنه أعمق :

لو كان الأمر ثأرًا ؛ لكانت كل الحروب ثأرًا . لكن ما الذي يجعل هؤلاء الرجال يسيرون في هذا الحر ؟ ما الذي يجعلهم يبتسمون وهم جياع ؟ .

تذكرت وجه النبي ﷺ ؛ وكيف كان إذا تكلم ، كأنما يُخرج من القلوب ما فيها من ظلام. حينها فقط فهمت. لم يكن الأمر ثأرًا ؛ بل رسالة.

X

همست لنفسي ببيتٍ كأنه وُلد في تلك اللحظة :

إذا الإيمانُ في قلبٍ توهّجَ رأيتَ الموتَ دربًا لا يُفَرَّجُ

ثم تذكرت قولًا سمعته يومًا :

ليس الشجاع من انتقم ؛ بل من ملك نفسه عند الغضب .

وأدركت أن المعركة الحقيقية لم تكن مع الروم ؛ بل مع النفس.

X

في قصره ، لم ينم هرقل تلك الليلة. كان يسأل نفسه :

كيف لهؤلاء ؛ أن يأتوا في هذا الحر ؟ أجنونٌ هذا ؟ أم يقين ؟

ثم تذكر ما قيل له عن نبي العرب ؛

إن كان ما يقولونه حقًا؛ فهؤلاء ليسوا مجرد جيش .

وقف ، وسار إلى النافذة ، ونظر نحو الجنوب ؛ حيث الصحراء.

حيث خمسة آلاف رجل؛ يحملون ما لا يُقاس بالعدد.

X

لم تقع معركة كبرى في غزوة تبوك ، لكن شيئًا أعظم حدث ؛

لقد اهتزت صورة الروم في أعين أنفسهم . وانكسر حاجز الخوف في قلوب المسلمين.

وعاد الجيش ؛ لا بدماءٍ تسيل ، بل بيقينٍ يتجذر.

وفي طريقي إلى المدينة، أدركت أن التاريخ لا يُصنع بالسيوف فقط ؛ بل بالقلوب التي تعرف لماذا تقاتل.

إذا ما القومُ قالوا من فتىً ؟ خِلتُ أنني عُنيتُ فلم أكسل ولم أتبلّدِ

وهكذا ؛ بدأت رحلة أمةٍ ستغير وجه العالم. بخمسة آلاف ؛ لكنهم كانوا أكثر.

حين نطقت الرمال

حوار مع الفاروق على تخوم التاريخ

كان الليل يهبط على الصحراء كعباءةٍ من تأملٍ ثقيل ، والنجوم تتلألأ في صفحة السماء كأنها عيونٌ ساهرة تراقب مصير أمةٍ تتشكل على مهل ، بين دمعةٍ وسيف ، وبين دعوةٍ وسكون. جلستُ وحدي ، أُقلّب في صدري أسئلةً أكبر من عمري ، وأثقل من صمتي ، حتى خُيّل إليّ أن التاريخ نفسه قد جلس قبالتي ، في هيئة رجلٍ مهيب ، تتقاطع في عينيه صرامة القائد وحنان الأب.

كان هو، الفاروق. لا كتمثالٍ في كتب السيرة ، ولا كاسمٍ محفورٍ في الذاكرة ، بل روحًا حاضرة ، نابضة ، كأنها خرجت من عمق الزمن لتجيب عمّا عجزتُ عن فهمه.

اقتربتُ منه ، وقد تهيّبتُ المقام ، وقلت بصوتٍ يختلط فيه التردد بالرهبة :

يا أمير المؤمنين ، أحقًا خرجتم إلى تلك الحروب طلبًا للثأر ؟ أم كان في الأمر سرٌّ لا تدركه العيون السطحية ؟

ابتسم ابتسامةً خفيفة ، فيها شيء من الأسى ، وشيء من الحكمة التي لا تُقال إلا لمن يطلبها بصدق ، ثم قال بصوتٍ هادئٍ

لكنه نافذ كالسيف: ليس للثأر خرجنا يا فتى ، بل خرجنا نحمل نورًا ، لا نارًا ، ونفتح قلوبًا، لا نحرق ديارًا.

ثم سكت لحظة ، كأنه يُنصت لصوتٍ داخلي ، أو يستعيد ذكرى بعيدة ، قبل أن يستأنف :

إنما خرجنا لننشر الإسلام ، لنحرر العقول التي سُجنت في خرافاتٍ صنعها الخوف ، وأقفلوا عليها بأقفال الجهل ، حتى ظنوا أن الظلام قدرٌ لا يُكسر.

ارتجف شيءٌ في داخلي ، وتساءلت بيني وبين نفسي :

هل يمكن أن يكون القتال طريقًا للهداية ؟ وهل يمكن أن يولد النور من رحم الصدام ؟

فقلت، وقد جمعت شجاعتي :

ولكن يا أبا حفص ، إن ما تقول يعني صدامًا رهيبًا مع قوتين عظيمتين ، الفرس عن يمينكم ، والروم عن شمالكم ، وأنتم أول من يعرف بأسهم ، وبأسهم في القتال.

رفع رأسه ، ونظر إليّ نظرةً عميقة ، كأنها تخترق طبقات الزمن ، و قال :

أعرف يا ولدي ، أعرف من هم الروم ، وأعرف من هم الفرس ، لكنني أعرف أيضًا من هم المسلمون.

ثم ضرب بيده على صدره ، وقال بصوتٍ ارتجفت له الصحراء :

هؤلاء قومٌ إذا قالوا الله أكبر ، خرجت من قلوبهم قبل أن تخرج من أفواههم.

وساد صمتٌ ثقيل ، كأن الأرض نفسها تنصت.

ثم أضاف :

لقد انتشر الإسلام في جزيرة العرب ، بعد فتح مكة ، وبعد أن خضعت هوازن ، فلم يبقَ في الجزيرة قلبٌ لم يسمع النداء . فهل تظن أن هذا النور سيقف عند حدود الرمال ؟

أطرقتُ رأسي ، وقد بدأت أفهم ، أو أظن أنني أفهم.

إذن فالصدام كان حتميًا ؟

قال ، وهو ينظر إلى الأفق البعيد :

حتمي ، أردناه أم لم نرده.

ثم تنهد ، وكأن في صدره تاريخًا كاملًا من الخيارات الثقيلة :

لم نكن نحب الحرب ، يا فتى ، بل كنا نفرّ منها ما استطعنا . لكننا كنا نعلم أن الحق إذا طرق أبواب الباطل ، فلن يُفتح له الباب إلا بصوت السيوف.

قلتُ، وقد بدأ القلق يتسلل إلى صوتي :

ولكن الروم لن يرضوا بوجودكم على مشارف الشام،

قاطعني، بنبرةٍ هادئة :

ولن يرضوا بوجودنا على حدود العراق أيضًا.

ثم مال نحوي قليلًا، وكأنه يبوح بسرّ:

لقد أردنا ألا يقع صدام ، أرسلنا إليهم بالكلمة قبل السيف ، وبالدعوة قبل القتال. أملنا أن تكون الرسالة كافية ، أن تهدي، لا أن تُكره.

ثم تغيرت ملامحه فجأة ، واشتد صوته :

ولكن انظر ماذا فعلوا!

وسكت لحظة ، ثم قال ، وكأنه ينقل صوتًا من أعماق التاريخ:

كسرى، ملك الفرس ، كتب إلى ولاته:

اخلعوا أكتاف العرب الساكنين في السواد، اقتلوا كل من يتصل بالمسلمين ، اجعلوا من الحيرة مأوى لكل مبغضٍ لهذا الدين.

شعرتُ بقشعريرة تسري في جسدي.

وهل هذا وحده ما حدث ؟

هزّ رأسه :

لا، بل كان هرقل أشد غرورًا.

ثم رفع صوته ، مقلدًا نبرة الإمبراطور:

هؤلاء العرب أقل وأذل من أن أحاربهم بجيوشي ، ستكفيهم قبائلهم التي تدين لنا، اضربوهم ببعض ، واجعلوا أبناءهم سيوفًا عليهم

ثم عاد إلى صوته الطبيعي ، وقال بسخريةٍ مريرة :

هكذا كانوا يروننا ، قبائل متناحرة ، لا أمةً موحّدة.

سكتنا معًا ، كأننا نستمع إلى صدى تلك الكلمات عبر القرون.

ثم قال ، بصوتٍ خافت :

وهل تعلم ما هو أخطر من سيوفهم ؟

قلت:

ماذا؟

قال :

استخفافهم بنا.

ثم أضاف، وكأنه يقرأ من كتاب الحكمة :

إذا استهان العدو بك، فقد أعطاك نصف النصر دون أن يدري .

جلستُ صامتًا ، وقد بدأت تتشكل في ذهني صورةٌ جديدة ، ليست عن حربٍ فقط ، بل عن صراعٍ بين رؤيتين للعالم : رؤيةٍ ترى الإنسان عبدًا للسلطة ، وأخرى تراه عبدًا لله وحده.

قلتُ ، وأنا أغوص في أعماقي :

يا أبا حفص ، هل كنت تخاف ؟

نظر إليّ طويلاً ، ثم قال:

نعم، كنت أخاف.

تفاجأت.

تخاف ؟!

ابتسم ، و قال :

أخاف أن نقصر ، أن نخون الأمانة ، أن نُسيء إلى هذا الدين ونحن نحمله.

ثم أضاف ، بصوتٍ يكاد يُسمع :

أما الموت، فلم يكن يخيفنا.

وسكت ، ثم أنشد بصوتٍ خافت :

نموتُ لكي تحيا المبادئُ في الورى

ونفنى ويبقى الحقُّ رغم الفناءِ

شعرتُ بشيءٍ ينكسر داخلي ، أو ربما يُبنى من جديد.

قلتُ:

وكيف كان يقاتل المسلمون ؟

قال ، وعيناه تلمعان:

كانوا يقاتلون وهم يرون الجنة أقرب من الأرض ، ويهتفون : الله أكبر ، لا طلبًا للغنيمة ، بل طلبًا للمعنى.

ثم أضاف :

كانوا يعرفون لماذا يقاتلون ، وهذا ما كان يجهله أعداؤهم.

وتذكرتُ قولًا سمعته من قبل ، فقلت :

ألهذا قالوا : إنكم تحبون الموت كما نحب الحياة ؟

ابتسم ، وقال:

بل كنا نحب الحياة ، لكننا كنا نحبها حرة.

ثم نهض، كأن الحوار قد أوشك على نهايته ، و قال :

يا بني، ليست الحروب هي التي تصنع الأمم ، بل المبادئ التي تستحق أن يُقاتل من أجلها.

ثم نظر إليّ نظرةً أخيرة ، و قال:

فإذا أردت أن تفهم التاريخ ، فلا تنظر إلى السيوف ، بل انظر إلى القلوب التي حملتها.

وغاب.

بقيتُ وحدي ، والصحراء كما هي ، والنجوم كما هي ، لكنني لم أعد كما كنت.

همستُ لنفسي :

إذا كان في القلب نورُ يقينٍ فلن تُطفئَ الريحُ ذاك السراجا

وأدركتُ أن التاريخ ليس حكايةً تُروى ، بل سؤالٌ يُطرح ، في كل زمان ، على كل إنسان :

لماذا تقاتل ؟ ولماذا تعيش ؟

سبتمبر اللهيب
الإيمانُ و حرارةَ الصحراء وحدّةَ القرار

في أفقٍ تتكسّر فيه أشعة الشمس على رمال الجزيرة كأنها سيوفٌ مسلولة ، وفي زمنٍ كانت فيه النفوس تُصاغ على مهلٍ بين الإيمان والريبة ، وقفتُ أمام الفاروق ، عمر بن الخطاب ، أستجمع شتات سؤالي كما يستجمع العطشان قطرات المطر في قيظٍ لا يرحم.

قلت له ، وصوتي يتردد بين يقينٍ ووجل :

ولكن الهول قادم نحوهم ، ويبقى السؤال يا سيدنا عمر قائمًا: لماذا في سبتمبر ؟ لماذا في الحر الشديد ؟

نظر إليّ نظرةً كأنها تقرأ ما وراء الكلمات ، نظرة رجلٍ خبر الدنيا ، وعرف كيف تختبئ الحكمة في قلب المحنة. سكت لحظة ، كأنما يزن الزمان في كفّ ، والتاريخ في كفّ أخرى ، ثم قال بصوتٍ هادئٍ لكنه نافذ:

يا هذا، لم تكن الأيام تُختار عبثًا ، ولا كانت الحروب تُخاض على هوى .لقد بلغ الصراع السياسي على عرش الإمبراطورية البيزنطية ذروته ، حتى صار كالسيف على الرقاب ؛ إما أن يتغلب هرقل على مناوئيه ، فيستتب له الأمر ، وإما أن يغلبه البطارقة ، فيغدو سلطانًا بلا سلطان ، واسمًا بلا أثر.

ثم اقترب قليلًا ، وكأنما يُسلم إليّ سرًّا من أسرار الزمن:

وكانت الحكمة النبوية ترى ما لا يراه الناس ، فأراد محمد أن يطرق الحديد وهو ساخن ، أن يضرب الإمبراطورية وهي في لحظة اضطرابها ، لا في ساعة قوتها.

X

هنا، شعرتُ أني أسمع صدى أصواتٍ بعيدة ، أصوات رجالٍ يتساءلون ، لا عن شكٍّ في الإيمان، ولكن عن ثقل الواقع:

نسير إلى الروم في هذا الحر اللافح ؟ الروم ؟!

أيلزم أن نحارب ولم تلتئم بعد جراح الطائف وخيبر ؟ ماذا لو انتظرنا حتى تخمد وقدة الحر ؟

كان السؤال مشروعًا ، وكان التعب حقيقيًا ، لكن الإيمان ، كان امتحانه أعظم.

فإذا بصوتٍ كالسيف ، يقطع التردد من جذوره:

ويحكم ! أيأمركم رسول الله فلا تنفرون ؟!

كان الصوت صوت أبو بكر الصديق ، يحمل في نبرته يقينًا لا يتزعزع.

فقالوا ، وقد خفَتت حدة أصواتهم :

والله ما عصينا ، ولا عيب يا أبا بكر أن نسأل.

عندها ، اشتعلت في عينيه شرارة التاريخ ، وقال بصوتٍ ارتجف له القلب :

سألها بنو إسرائيل من قبلكم ، فقالوا لنبيهم :

اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، أما نحن ، فوالله لا نقولها.

ثم رفع رأسه ، كأنما يخاطب السماء :

بل نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا ، **إنا معكم مقاتلون**.

X

في تلك اللحظة، شعرت أني لا أسمع حوارًا خارجيًا فحسب ، بل أعيش صراعًا داخليًا يتردد في كل نفس بشرية :

هل أتبع العقل الذي يحسب الخسائر ؟ أم أتبع القلب الذي يثق بوعد السماء ؟

وكان صوت داخلي يهمس :

ليس الشجاع من لا يخاف ، بل من يجعل خوفه سلّمًا نحو الإيمان.

X

قلت له :

يا أبا حفص ، الذي أعرفه أن رسول الله بحكمته أملى للمنافقين ، وكان في قدرته أن يأخذهم أخذًا شديدًا، فكيف كان موقفهم ؟

ابتسم ابتسامةً فيها شيء من الأسى ، و قال :

قبل أن أحدثك عنهم ، دعني أحدثك عن الجيش ، فهم لا يُفهمون إلا في سياقه.

لم يكن للمسلمين جيشٌ ثابت كما تعرفون اليوم ، لم تكن هناك رواتب ، و لا سجلات ، ولا معسكرات دائمة .كان النفير إذا صُيح به ، خرج الناس ، كأنما خرجت أرواحهم قبل أجسادهم.

ثم أطرق قليلًا ، و أكمل :

كان الجهاد نداءً في القلب ، لا وظيفةً في الديوان . وكان ثوابه في النفوس أعظم من كل أجر.

ثم تغير صوته ، كأنما أثقله حزنٌ قديم :

لكن ، يا هذا ، لكل زمانٍ طبعه .ضعف ذلك الدافع بعدنا ، وصار الناس يحتاجون إلى ما يُقيم ظهورهم قبل أن يُقيموا سيوفهم.

وأضاف:

فاتخذت الأمم الجيوش النظامية ، وصارت الرواتب تُغري ، والنيات تختلط،

وسكت قليلًا ، ثم أنشد بصوتٍ خفيض :

إذا الإيمانُ ضاع فلا أمانُ ولا دنيا لمن لم يُحيِ دينه

ومن رضي الحياة بغير سيفٍ تكفّل غيرُهُ يومًا بحينه

X

عدت أسأله ، وقد بدأت تتكشف لي خيوط الفكرة :

إذًا، لم يكن سبتمبر مجرد زمن ؟

فقال :

بل كان اختبارًا ، اختبارًا للحرارة في الخارج ، والحرارة في الداخل.

ثم أردف :

من استطاع أن يهزم شمس الصحراء ، فهو أقدر على هزيمة جيوش الروم.

X

وفي تلك اللحظة ، شعرت كأنني أسمع صوته الداخلي ، لا صوته المسموع :

يا عمر ، كم مرة وقفت بين خوفٍ ورجاء ؟ كم مرة ظننت أن الطريق شاق ، ثم وجدته أقصر مما تخيلت ؟ إنها ليست حرب سيوف ، بل حرب يقين.

نهض الفاروق ، ونظر إلى الأفق ، حيث كانت الشمس تميل نحو الغروب ، و قال :

يا هذا ، لو انتظروا البرد ، لما عرفوا معنى الصبر . ولو انتظروا الراحة ، لما ذاقوا طعم النصر.

ثم التفت إليّ ، وقال جملةً حفرت في القلب أثرًا لا يُمحى :

إن الله لا يختبر الناس بما يطيقون فقط ، بل بما يكشف حقيقتهم.

X

في لهيبِ الطريقِ تُعرفُ خُطانا هل سرينا ، أم اكتفينا ظنونًا ؟

ليس دربُ السماء يُهدى لكسلٍ بل لمن صاغ من عذابٍ يقينًا

وهكذا ، لم يعد السؤال : لماذا في سبتمبر ؟ بل صار : **من الذي يثبت حين يأتي سبتمبر ؟**

التآمر تحت شمس تبوك

ما إن ارتفعت راية التعبئة ، وانطلق النداء من قلب النبوة يشقّ سكون المدينة ، حتى اضطربت القلوب التي لم تعرف يقينًا ، واهتزّت الأرواح التي طالما عاشت على حافة الإيمان دون أن تغوص فيه. كانت المدينة يومئذٍ تغلي بصمت ؛ حرارة الشمس لا تضاهي حرارة النفوس ، ولا قيظ الأرض يبلغ قيظ الصدور.

في الأزقة ، كان المؤمنون يستعدّون ، يربطون على قلوبهم قبل أن يربطوا على متاعهم ، أما في الزوايا المظلمة ، حيث تتوارى النوايا خلف الأقنعة ، فقد بدأ مشهد آخر يتشكل ؛ مشهدٌ من الهمس ، والضحكات المكسورة ، والتآمر الذي يتغذّى على الخوف.

في دار سويلم ، ذلك البيت الذي لم يكن مجرد جدرانٍ من طين ، بل كان مسرحًا لعقولٍ تتقاطع فيها المصالح ، وتتشابك فيها الأحقاد ، اجتمع القوم.

جلس عبد الله بن أبي بن سلول ، وقد بدا على وجهه ذلك التوازن المريب بين الكبرياء والقلق. عيناه كانتا تتأملان المكان ، لكن عقله كان بعيدًا ، غارقًا في دوامةٍ من الحسابات.

أيعقل أن يخرج محمد إلى الروم ؟

قالها في نفسه قبل أن ينطق بها ساخرًا ، كأنما يسخر من قدرٍ يخشاه أكثر مما ينكره.

رفع رأسه وقال بصوتٍ فيه من التهكم ما فيه :

مرحبًا يا سويلم ؛ أَيَضيرك أن نجتمع في دارك ؟

ضحك سويلم ، ضحكةً طويلة ، كأنها خرجت من أعماق زمنٍ قديم ، و قال :

يضرّني ؟ بل هو سروري يا أبا عبد الله ؛ والله لقد انتظرت هذه اللحظة منذ زمن بعيد. اليوم ، نشرب نخب الفرصة التي طال انتظارها.

ثم أشار بيده، فتقدمت الخدم تحمل الكؤوس ، وامتلأت القاعة برائحة نبيذٍ ثقيل ، يختلط بدخان المصابيح ، ويزيد الجو كثافةً وغموضًا.

دخلت راشيل ، بخطواتٍ خفيفة ، كأنها لا تمس الأرض. كانت ترقص ، لكن رقصها لم يكن مجرد حركات ؛ كان انعكاسًا لروحٍ تربّت في بيئةٍ تعرف كيف تزيّن اللحظة لتخفي خلفها حساباتٍ أبعد.

في تلك اللحظة ، كان " الضحاك " يراقب المشهد بصمت. لم يكن ساذجًا ، ولا منغمسًا كليًا في اللهو ، بل كان عقله يعمل ؛ يسأل ، يحلّل ، و يخشى.

قال بصوتٍ منخفض :

محمد يريد أن يحارب بني الأصفر ؟ أترى الأمر بهذه البساطة ؟

ابتسم ابن سلول بسخريةٍ مريرة :

بل أترى في الأمر إلا تهوّرًا ؟ أي جسارة هذه ؟

تدخل سويلم ، وهو يرفع كأسه :

ولِمَ لا ؟ لقد دانت له الجزيرة ، وصار له من الأتباع ما يغريه بالمزيد. القوة تُغري ، يا سادة ؛ تُغري حتى الحكماء.

سكت لحظة ، ثم اقترب قليلًا ، وخفّض صوته :

لكن ؛ لكل قوةٍ ثغرة.

هنا ، تحرك شيء في داخل ابن سلول. شعر أن هذه الجملة ليست مجرد رأي ، بل مفتاح.

ثغرة؛ نعم ، لا بد أن هناك ثغرة.

قال الضحاك :

وما هي ؟

ابتسم سويلم ابتسامةً ضيقة :

الحر.

ساد صمتٌ ثقيل ، ثم انفجر بعضهم ضاحكًا ، لكن الضحاك لم يضحك.

الحر ؟

قال سويلم :

نعم ؛ الحر ، والتعب ، وطول الطريق. الناس ليسوا سواء ، يا ضحاك. منهم من يخرج إيمانًا ، ومنهم من يخرج حياءً ، ومنهم من يخرج لأنه لا يجد عذرًا ؛ وهؤلاء هم هدفنا.

اقترب أكثر ، وكأن الكلمات أصبحت سيوفًا تُمرر في الظل :

انبثوا بينهم ؛ لا تهاجموهم ، لا تصرخوا ؛ بل ازرعوا السؤال :

ماذا الآن ؟ لماذا في هذا الحر ؟ لماذا نترك الثمار وقد نضجت ؟ لماذا نبتعد عن الماء ونحن في أشد الحاجة إليه ؟

أطرق ابن سلول رأسه ، وغاص في داخله.

نعم ؛ الناس يحبون السلامة ؛ يحبون الظل ؛ يخافون من المجهول . ليس علينا أن نقنعهم ، فقط أن نوقظ ما فيهم.

قال ببطء :

ومن يتخلّف ؛

أجابه سويلم :

سيجد ألف مبرر ؛ ونحن نمنحه الأول.

ثم ارتفعت ضحكات خافتة ، لكنها لم تكن ضحكات فرح ، بل ضحكات من وجدوا في الضعف البشري مدخلًا.

X

في تلك اللحظة ، كان الصراع الحقيقي لا يدور في الخارج ، بل في الداخل.

داخل ابن سلول ، كان هناك صوتان. صوتٌ يقول :

هذا طريقك ؛ أنت لم تختر أن تكون تابعًا ، أنت كنت سيدًا ، ثم جاء هذا الرجل وسلبك مجدك.

وصوتٌ آخر ، أضعف ، لكنه حاضر :

لكن ؛ ماذا لو كان على حق ؟ ماذا لو كان ما يقوله حقًا ؟

هزّ رأسه ، كأنما يطرد هذا الصوت.

الحق ؟ الحق لمن يملك القوة.

قال فجأة :

وماذا عن الروم؟

التفتت إليه الأنظار.

ألا ترون أن من الحكمة أن نحذّر قيصر ؟ إن ساروا ، وجدوه مستعدًا ؛ وإن لم يسيروا ، كسبنا يدًا عنده.

ابتسم سويلم ، وكأن هذا السؤال كان ينتظره :

سبقك إليها فكري ، يا أبا عبد الله . كتبت إلى أصحابي في الشام ؛ وما أظنهم إلا قد بلغوا قيصر.

سكت لحظة ، ثم قال بنبرةٍ مشبعةٍ بالأمل :

لن ينسى لنا ذلك ؛ وحين تعود الأمور إلى نصابها؛

لم يكمل ، لكن الجميع فهم.

حين يسقط محمد؛

X

في زاوية المجلس ، كان أحدهم صامتًا. لم يكن من القادة ، ولا من أصحاب القرار ، لكنه كان يسمع ؛ ويتأثر.

كان قلبه يرتجف.

أحقًا نحن على صواب ؟ أم أننا نسير خلف خوفنا ؟

تذكّر كلماتٍ سمعها من قبل :

دع ما يريبك إلى ما لا يريبك.

لكن ما لا يريبه كان يحتاج شجاعة ؛ وهو لم يكن شجاعًا.

قال الضحاك :

لكن ؛ ماذا لو خرجوا رغم كل شيء ؟

أجابه سويلم :

حينها؛ يكون الروم في انتظارهم.

X

خارج الدار ، كانت الشمس تميل ، لكن حرارتها لم تخف.

في مكانٍ آخر ، كان رجالٌ آخرون يستعدّون ؛ بقلوبٍ مختلفة. \

كانوا يعلمون أن الطريق طويل ، وأن الحر شديد ، وأن العدو قوي ؛ لكنهم كانوا يحملون شيئًا آخر. الإيمان.

X

قال أحد الحكماء يومًا :

إذا امتلأ القلب يقينًا ، صار الخوف ظلًا لا يلبث أن يزول.

وقال شاعرٌ قديم :

إذا الإيمانُ لامسَ قلبَ حرٍّ رأى في الشدّةِ الكبرى جمالا

وما ضاقتْ دروبُ الأرضِ يومًا على من كانَ في اللهِ احتمالا

X

في دار سويلم ، انتهى المجلس ، لكن ما قيل فيه لم ينتهِ.

خرجوا؛ كلٌ يحمل دوره. ينفثون الشك ، يزرعون الخوف ، زيّنون التخلّف.

أما في السماء، فكان هناك قدرٌ يُكتب ؛ لا بالكلمات، بل بالمواقف.

وفي أعماق ابن سلول ، بقي السؤال ؛ وإن حاول دفنه :

ماذا لو ؛ ؟

لكنه لم يكمله.

لأن بعض الأسئلة ؛ أخطر من الإجابات.

X

وهكذا، كُتب فصلٌ آخر من فصول الصراع ؛ ليس بين سيفٍ وسيف ، بل بين قلبٍ وقلب ، بين يقينٍ وشك ، بين نورٍ وظل.

وفي النهاية ؛ لا ينتصر إلا ما كان صادقًا.

وما النفاقُ سوى ظلٍّ بلا جسدٍ إذا تنفّسَ نورُ الحقِّ؛ انكسرا

فاختر لنفسكَ دربًا لا ظلامَ بهِ

فالنورُ يبقى؛ وإن طالَ المدى؛ قَدَرا

حين يتكلم التاريخ
حوار الفاروق وظلال الفتنة

في مساءٍ كأنما انحنت فيه الأزمنةُ لتصغي ، جلس الراوي أمام عمر بن الخطاب ، وقد ألقى الليلُ عباءته على الصحراء ، انطفأت الضوضاء وبقيت الأسئلة وحدها تتوهّج كجمرٍ تحت الرماد. كان الهواء ساكنًا ، لكن في الصدور عواصف ، وفي الذاكرة جراحٌ لم تندمل.

قال الراوي ، وفي صوته رجفة من حمل التاريخ :

يا سيدنا عمر ، كأنما يعيد التاريخ نفسه ؛ تتكرر الوجوه وإن تغيّرت الأسماء ، وتعود الخيانات بثيابٍ جديدة. لقد كان اليهود في عصورٍ متأخرة عوامل فسادٍ وإفساد ، إحباطٍ وتفكيك ، يساندون أعداء العروبة ، ثم يقبضون الثمن من لحمنا ودمنا.

رفع الفاروق رأسه ، وكانت عيناه كأنهما ميزان عدلٍ لا يختلّ ، لا تعصف به العاطفة ولا تُغريه الشعارات. تأمل السائل طويلًا ، ثم قال بصوتٍ هادئٍ ، لكنه حاسم كالسيف :

ما أحسب إلا أن ضعفكم واستكانتكم وفرقتكم وراء ما حلّ بكم . أما نحن ، فلم نكن نُغلب من خارجنا حتى نُهزم من داخلنا ؛ أدركنا هدف العدو فأفسدناه ، قبل أن يفسدنا.

تراجع الراوي في صمت ، وكأن كلمات الفاروق فتحت بابًا في ذاكرته لم يكن يجرؤ على طرقه. قال :

وكيف كان ذلك يا سيدنا ؟

ابتسم الفاروق ابتسامةً حزينة ى، كمن يرى التاريخ دائرةً تتكرر ، و قال :

كانت الفتنة يا بني تبدأ همسًا ؛ ثم تصير صراخًا. تبدأ فكرةً صغيرة ، تُزرع في قلبٍ متردد ، فإذا بها تنمو كالأفعى في الظلام.

ثم أطرق قليلًا ، و استأنف :

سار أصحاب عبد الله بن أبي بن سلول بين الناس ، يطرقون الأبواب خفية ، لا يحملون سيوفًا ، بل كلماتٍ مسمومة. وكان على رأسهم رجل من اليهود يُدعى سويلم ، لقّنهم جملةً واحدة ، كأنها سهمٌ مغموسٌ في شكّ :

لا تنفروا في الحر ؛ وهل لكم طاقة بجنود قيصر ؟

ارتعش الراوي ، و قال:

كلمة واحدة ؟

قال الفاروق :

نعم ؛ الكلمة حين تُقال في الوقت المناسب ، تكون أخطر من ألف سيف.

ثم أردف ، وكأنه يستعيد أصواتهم :

و قالوا :

محمد يعدكم الجنة إن صبرتم ، ثم يعرضكم لفتنة نساء بني الأصفر!

وقال آخر

: كيف تملكون أنفسكم أمام ذوات الشعر الأصفر ، والعيون الزرق ، والبشرة البيضاء الوردية ؟

وسكت الفاروق ، ثم قال ببطء :

وهنا ، يا بني ، تبدأ المعركة الحقيقية ؛ ليست في ساحة القتال ، بل في قلب الإنسان.

X

في تلك اللحظة ، شعر الراوي أنه يرى المشهد لا يسمعه فقط. كأن المدينة المنورة انبعثت من الرمال ، وكأن الوجوه عادت حيّة. رأى رجلاً يقف وحده ، قلبه ساحة حرب ، وعقله ميدان شك.

قال الفاروق :

كان الرجل يسمع ؛ ثم يتردد ؛ ثم يبرر لنفسه.

و كأن صوتًا داخليًا كان يهمس :

الحر شديد ؛ والرحلة طويلة ؛ ولماذا المخاطرة ؟ أليس في البقاء سلام ؟

لكن صوتًا آخر ، أضعف ، كان يقول :

لكنها دعوة رسول الله ؛ أفتتخلف ؟

هنا تدخل الشيطان ، كما قال الفاروق :

فيُلبس التردد ثوب الحكمة ، و الخوف لباس التعقل.

ثم أنشد الفاروق بصوتٍ خافت :

إذا لم تخاطر في المعالي بقيتَ في حضيضِ الذلّ تُسقى

ومن يتهيب صعودَ الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر

تنهد الفاروق ، ثم قال :

أما المنافقون ، فقد وجدوا في الفتنة ستارًا يستر عري أرواحهم. ومنهم رجل يُقال له الجد بن قيس.

اقترب الراوي أكثر ، وكأنه يخشى أن تضيع منه كلمة.

قال الفاروق :

جاء الجد إلى رسول الله ﷺ ، وكان يعلم ويعلم النبي ما في قلبه. قال :

يا رسول الله ، ائذن لي ولا تفتني.

فقال الراوي ، متعجبًا :

وما الفتنة ؟

قال الفاروق ، وعيناه تلمعان بحزنٍ عميق :

قال :

إني رجلٌ شديد الإعجاب بالنساء ، وأخشى إن رأيت نساء الروم ألا أصبر.

ساد الصمت.

ثم قال الفاروق ، بصوتٍ يحمل شيئًا من الأسى :

أرأيت يا بني ؟ جعل شهوته عذرًا ، وضعفه حجة ، وخوفه ستارًا لنفاقه.

X

تابع الفاروق :

أعرض عنه رسول الله ﷺ ، وأذن له ؛ لا لأنه يستحق الإذن ، بل لأن القلوب التي أغلقت أبوابها لا تُفتح بالقوة.

ثم أضاف :

خرج الجد يجر ساقيه ، لا من المرض ؛ بل من الخزي.

وهنا، اشتدّ صوت الفاروق ، كأنه يستدعي مشهدًا مؤلمًا :

لكن القصة لم تنتهِ هنا ؛ بل بدأت.

قال الراوي :

ماذا حدث ؟

قال الفاروق :

كان للجد ولدٌ اسمه عبد الله بن الجد بن قيس ، صادق الإيمان ، حيّ الضمير.

ثم خفّض صوته :

قال لأبيه :

والله ما يمنعك إلا النفاق ، وسينزل الله فيك قرآنًا.

تجمدت الكلمات في الهواء.

قال الراوي ، وقد اختنق صوته :

و ماذا فعل الأب ؟

قال الفاروق :

ضرب وجه ابنه بنعله.

ثم سكت لحظة ، و قال :

أتدري ماذا قال الابن ؟

هز الراوي رأسه.

قال الفاروق :

قال : وددتُ أنه ضربني ألف ضربة، ثم أخلص قلبه لله.

X

ارتفعت نبرة الفاروق ، كأنما يتلو حكمًا لا يُرد :

ثم نزل قول الله تعالى :

[ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ، ألا في الفتنة سقطوا ، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين]

ارتجف الراوي ، وكأن الآية نزلت في قلبه هو.

قال الفاروق :

صارت قصته خزيًا يُروى ، لا لأن الله أراد فضيحته ؛ بل ليكون عبرةً لمن يأتي بعده.

قال الراوي :

وماذا عن الابن ؟

ابتسم الفاروق ابتسامةً فيها ألم و أمل :

كان يتبع أباه في الأسواق ، يقرأ عليه الآية ، كأنما يطرق باب قلبه مرةً بعد مرة.

ثم قال :

كان يقول له : أَلم أقل لك يا أبت ؟ أسلم تسلم.

قال الراوي :

وهل أسلم ؟

أطرق الفاروق ، و قال :

كان الأب يقول له مغيظًا :

اسكت يا لكع ؛ والله لأنت أشد عليّ من محمد.

X

ساد الصمت طويلًا ، ثم قال الراوي :

يا سيدنا ؛ لماذا يفعل الإنسان هذا بنفسه ؟

نظر إليه الفاروق ، نظرة من يعرف الإنسان أكثر مما يعرف نفسه ، و قال :

لأن الاعتراف بالحق يحتاج شجاعة ، والهروب منه يحتاج حيلة. والإنسان إذا أحب ضعفه صار أسيرًا له.

ثم قال :

النفاق ليس كذبًا فقط ؛ بل هو خوفٌ من مواجهة الذات.

X

رفع الفاروق يده ، وكأنه يخاطب زمانين معًا :

لا تنظروا إلى العدو وحده ؛ بل انظروا إلى أنفسكم . ما دخل عليكم أحدٌ إلا من ثغرةٍ فيكم.

ثم أنشد :

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيبٌ سوانا

ونهجو ذا الزمان بغير ذنبٍ ولو نطق الزمان لنا هجانا

X

عاد الليل يشتد ، والنجوم تلمع كأنها شهودٌ على هذا الحوار الذي تجاوز الزمن. شعر الراوي أن الكلمات لم تكن قصةً من الماضي ، بل رسالةً إلى الحاضر.

قال الفاروق ، في آخر حديثه :

يا بني ؛ التاريخ لا يعيد نفسه ، ولكن الناس يعيدون أخطاءهم. فإذا أردتم ألا تتكرر المآسي ، فابدؤوا من حيث بدأنا ؛ من إصلاح القلوب.

ثم قام ، كأنما انتهى المجلس ، لكن صوته بقي يتردد :

إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وفي قلب الراوي، اشتعل سؤالٌ أخير ؛ لكنه لم ينطقه. لأنه أدرك أن الجواب ليس عند الفاروق ؛ بل في داخله هو.

حين تتهيأ الرياح
سيرة النفس قبل سيرة السيف

كان الفجر يومئذٍ يخرج من رحم الليل متثاقلًا ، كأن الكون كله يتردد في إعلان صباحٍ جديد ، صباحٍ لا يشبه ما سبقه من الأيام. في المدينة ، حيث تختلط رائحة التراب بندى السحر ، وحيث ينهض الإيمان من صدور الرجال كما ينهض الضوء من الأفق ، كانت النفوس على موعد مع امتحانٍ ليس كسائر الامتحانات.

هناك ، في قلب ذلك المشهد ، كنا نسير في ركاب الفاروق ، عمر ابن الخطاب، τ، الرجل الذي إذا مشى حسبت الأرض تثبت أقدامها هيبةً له ، وإذا تكلم حسبت الكلمات تستأذن قبل أن تخرج من بين شفتيه.

اقتربتُ منه ، وكان وجهه يحمل من الصرامة ما يحمل من الرحمة ، ومن الصمت ما يحمل من الصخب الداخلي ، فقلت :

يا أمير المؤمنين ، حدثنا عن تلك الأيام، عن يوم دعا رسول الله ﷺ الناس إلى الشام ، وعن أولئك الذين تراجعوا حين تقدّم المؤمنون.

توقف عمر قليلًا ، وكأن السؤال لم يكن كلماتٍ تُسمع ، بل بابًا يُفتح على ذاكرةٍ مثقلة ، ثم قال بصوتٍ فيه خشونة الصحراء وصدق المطر:

يا بني ، إنك لا تسأل عن خبر ، بل تسأل عن قلوبٍ انكشفت ، وعن أرواحٍ افتُضحت ، وعن رجالٍ عرفوا الطريق ، وآخرين أضاعوه وهم يظنون أنهم أذكى من أن يُخدعوا.

ثم سكت لحظة ، وأطرق ، وكأنه يحاور نفسه قبل أن يحاورنا.

أيّ عمر كنتُ يومها ؟ أكنتُ أرى ما أرى الآن ؟ أم كنتُ أتعلم كيف أرى ؟

رفع رأسه ، و قال :

لما أعلن رسول الله ﷺ عزمه على المسير ، لم يكن الأمر كغيره من الغزوات ، كانت حرارة الصيف تضرب الأرض كالسياط ، وكانت الثمار قد نضجت ، والظلال قد امتدت ، والنفوس تميل إلى الراحة كما تميل الأغصان إلى الأرض إذا أثقلها الحمل.

وهنا، بدأ الامتحان.

X

في ناحيةٍ من المدينة، كانت دار سويلم اليهودي أشبه ببؤرة دخانٍ أسود ، يتصاعد منها الكلام كما يتصاعد السمّ في العروق. لم يكن المجتمعون هناك رجال رأي ، بل كانوا رجال هوى ؛ لا يزنون الأمور بميزان الحق ، بل بميزان الخوف والمصلحة.

و كان صوت أحدهم يعلو :

إلى أين تذهبون ؟ ! في هذا الحر ؟ ! أتتركون الظلال والماء ؟ ! أتلقون بأنفسكم إلى التهلكة ؟ !

فيرد آخر ، ضاحكًا بسخريةٍ مرّة :

ما نراه إلا أنه يغرّ بكم، حرب بني الأصفر ؟ ! هل نسيتم ماذا فعلوا بجيش زيد ؟ !

ثم يأتي ثالث ، وقد تلوّن صوته بلهجة النصح الكاذب :

لو كان بكم رحيمًا ، ما أخرجكم في مثل هذا القيظ !

وكانت الكلمات تُلقى ، لا لتُفهم ، بل لتُضعف ، لا لتُنير ، بل لتُعمي.

و هنا ، قال عمر بصوتٍ اشتدّ فجأة :

يا بني ، إن أخطر ما في النفاق أنه لا يأتيك عدوًا ، بل يأتيك ناصحًا ، ولا يطعنك من الخلف ، بل يربت على كتفك وهو يبتسم.

ثم تلا بصوتٍ خاشعٍ كأنما يخرج من أعماق الزمن :

[وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ]

ثم أردف :

وكان القرآن ، يا بني، كالسيف ، لا يخطئ ، يفضحهم كما تفضح الشمسُ الظلام.

X

لكن دعني أحدثك عن رسول الله ﷺ ،

هنا تغيّر وجه عمر ، وخفّت نبرته ، كأن الحديث انتقل من ساحة حرب إلى محراب خشوع.

ما كان يواجههم بعنف ، ولا يردّ عليهم بغلظة ، كان يرى ما لا نرى ، ويعلم ما لا نعلم ، كان يعلم أن النفوس لا تُقهر ، بل تُهذّب.

أي قلبٍ هذا ؟ كيف يسع هذا الحلم كل هذا الأذى ؟

كنتُ أراه ، يقول عمر ، وأقول في نفسي :

إذا ما الحلمُ زان الفتى**تسامى على قدره وارتقى* وإن ضاق صدرُ امرئٍ بالحليم** فذاك الذي نفسه أضيقُ*

ثم تابع :

تركهم رسول الله، ووكل سرائرهم إلى الله ، لكنه لم يترك الأمة تُخدع.

X

وفي تلك الليلة ، كانت المدينة منقسمة إلى عالمين :

عالمٍ يبيت على نية الجهاد ، وقلبه معلّق بالسماء ، وعالمٍ يبيت على نية التثبيط ، وقلبه معلّق بالخوف.

في دار سويلم ، كانت المؤامرة تُنسج ، وفي بيوت المؤمنين ، كانت النية تُصفّى.

و هنا ، دخل أبو بكر على رسول الله ﷺ.

تصوّر المشهد ، يا بني ، رجلٌ نحيل الجسد ، عظيم الروح ، يحمل في عينيه قلقًا لا على نفسه ، بل على الأمة.

قال:

يا رسول الله ، حتى متى نُملي لهم ؟ ! إنهم يثبطون الناس ، فمرني فيهم بأمر.

وسكت.

كان السؤال بسيطًا في لفظه ، لكنه عظيم في معناه.

هل يُواجه الشر بالقوة ؟ أم يُترك لينكشف ؟

نظر النبي ﷺ إلى أبي بكر ، نظرةً لو وُزنت لرجحت ، ثم قال كلامًا لم يصلنا لفظه ، لكن روحه بقيت في التاريخ :

أن لكل وقتٍ حكمه ، ولكل نفسٍ بابها.

عاد عمر ينظر إلينا ، و قال :

يا بني، ليس النصر بالسيف فقط ، بل بالنفس قبل السيف.

ثم اقترب مني قليلًا ، وقال بصوتٍ منخفض:

أتدري ما الذي كان يدور في صدري يومها ؟

قلت : ماذا يا أمير المؤمنين ؟

قال :

كنتُ أخاف ، نعم، أخاف ، لا من الروم ، بل من نفسي ، من أن أتأخر ، من أن أتردد ، من أن أكون يومًا مع من يقولون : لا تنفروا في الحر.

ثم سكت، وقال:

نفسُ الفتى إن لم يُهذّبها**قادته للذلّ والعارِ**

وإن سما بها إلى ربها نال العلا رغم الأخطار*

X

وفي الجهة الأخرى من العالم ، كان هرقل، إمبراطور الروم ، يقف في قصره ، لا كملكٍ مطمئن ، بل كعقلٍ قلق.

كانت الأخبار تأتيه تباعًا ، قومٌ خرجوا من الصحراء ، لا يملكون ما تملكه الإمبراطوريات ، لكنهم يملكون ما لا يُشترى.

وكان يحدث نفسه :

كيف يقاتل من لا يخاف الموت ؟ كيف يُهزم قومٌ يرون في الهزيمة طريقًا إلى الجنة ؟

ثم ينظر إلى بطارقته ، وقد اختلفوا في اللاهوت ، وتنازعوا في العقيدة ، فقال في نفسه :

نحن نختلف على السماء ، وهم يتوحدون تحتها.

فأمر بجمع القبائل العربية التي دانت بالنصرانية ، ليكونوا درعًا أول ، لكنه لم يكن يعلم أن الدرع إذا كان من قلبٍ خائف ، فإنه أول ما ينكسر.

X

عاد عمر يختم حديثه ، وقد بدا كأنه يخرج من زمنٍ إلى زمن:

يا بني، تلك الأيام لم تكن معارك فقط ، كانت مرايا ، كلٌّ رأى نفسه فيها.

ثم نظر إليّ نظرةً عميقة ، و قال :

فاسأل نفسك ، لو كنتَ هناك ، أين كنتَ ستكون ؟

وسكت. وسكتنا معه.

لكن الصمت لم يكن فراغًا ، بل كان سؤالًا ، لا يزال يتردد في أعماقنا : **هل نحن من أهل النفير ، أم من أهل التثبيط ؟**

وفي ختام الحديث ، ترددت في ذهني حكمةٌ كأنها خلاصة تلك الرحلة :

إذا اشتدت المحنُ انكشفَ الرجالُ **فمنهم من يعلو ومنهم من يزولُ**

وما النصرُ إلا صبرُ قلبٍ مؤمنٍإذا ضاقت الدنيا به قال: الرسولُ، قد قال

وهكذا ، لم تكن قصة الشام بداية حرب ، بل بداية كشف.

كشفٍ للنفس ، قبل أن يكون كشفًا للعدو.

لهيبُ الدار وظلالُ النفاق
مشهدٌ من سيرة المدينة بين الحزم والرحمة

في تلك الليلة المدنية الثقيلة ، كان السكونُ يهبط على الأزقة كأنّه عباءةُ شيخٍ حكيمٍ أنهكه طولُ التأمل ، غير أنّ ذلك السكون لم يكن سلامًا ، بل كان أشبه بصمتٍ يسبق انكسارًا عظيمًا . السماءُ منخفضةٌ على القلوب ، والريحُ تمرُّ بين جدران البيوت الطينية كأنها تهمس بأخبارٍ لا تجرؤ الألسن على إعلانها. في المدينة .

لم يكن الخطر يومئذٍ يأتي من وراء الأسوار ، بل من داخل الصدور؛ من صدورٍ أظهرت الإسلام وأبطنت الغدر ، فصار النفاقُ أشدَّ على الجماعة من وقع السيوف.

سكت رسول الله ﷺ ، وكان سكوته أبلغَ من الخطب الطوال ؛ سكونُ القائد الذي يرى ما وراء اللحظة ، ويزنُ مصائرَ الناس بميزان الرحمة والحكمة . غير أن أبا بكرٍ الصديق ، τ ، كان قد عزم في نفسه على أمرٍ رآه ضرورةً لحماية الجماعة وصون بنيانها من التصدع.

أقبل إليّ أبو بكرٍ في وقارٍ يجلله الحزن ، وفي عينيه ذلك البريق الذي لا يظهر إلا إذا اختلط الإيمانُ بالبصيرة. قال بصوتٍ خفيضٍ لكنه نافذٌ إلى القلب :

يا عمر ، إنّي والله لأعلم أنّ رسولَ الله قد ضاق بهؤلاء المنافقين ، ولكنه يشفق على أبنائهم الذين دخلوا الإسلام وأبلوا فيه بلاءً حسنًا.

وقفتُ هنيهةً أتأملُ وجهه. كان الصدّيق يرى ما وراء الفعل : يرى الأبناء الأبرياء الذين يحملون وزرَ آباءٍ أظلمت بصائرهم. في تلك

اللحظة ، أحسستُ أن المدينة ليست مجردَ جدرانٍ وطرقات، بل شبكةٌ من الأرواح ، إذا اهتزّ فيها خيطٌ واحدٌ ارتجف النسيجُ كله.

قلتُ له وأنا أسترجعُ مشهدًا لم يفارق ذاكرتي:

صدقتَ يا أبا بكر . لقد رأيتُ والله عبدَ الله بنَ الجدّ بنِ قيسٍ يبكي لإصرار أبيه على النفاق ، كأنّ الدمعَ كان يستغيثُ من قلبٍ شريفٍ وُلد في بيتٍ اختلط فيه الحقُّ بالعار.

تنهد أبو بكر ، ثم رفع رأسه كأنّه يقرأ في ظلام الليل ما تخفيه النفوس :

وأنا سمعتُ عبدَ الله يغلظُ لأبيه ابنِ سلول ، ويشتدُّ عليه لصحبته لسويلم اليهودي . ما عاد الأبناءُ يحتملون عارَ الآباء ، ولا الشبابُ يطيقون أن تُسحب المدينةُ إلى الخلف بأيدي المترددين.

هنا تحرك في داخلي ذلك الصراع القديم بين الرحمة والحزم . كنتُ أرى الإسلامَ دولةً ناشئةً ، كلُّ شرخٍ في جدارها قد يفتحُ بابًا لريحٍ عاتية . وكنتُ أرى أيضًا وجوهَ أولئك الذين يتسللون تحت جنح الليل ، يجتمعون في دار سويلم ، ينسجون الخيوط السوداء حول الجماعة ، ويغرسون الشكَّ في صدور الضعفاء.

قلتُ، وقد اشتدّ في صوتي وهجُ الغضب :

فحتى متى ؟ والله إن لم نردعهم ردعًا شديدًا لأفسدوا علينا أمرَنا ، ولجعلوا المدينةَ مرتعًا للهمس والريبة ، ولأوقدوا في كل بيتٍ نارًا لا تنطفئ.

نظر إليّ أبو بكر نظرةَ من اتخذ القرار بعد طول تفكير، ثم قال :

فلنذهب ، ومعنا نفرٌ من أصحابنا ، نحرق على المنافقين بيتَ سويلم . والله ما ينفضُّ هؤلاء عن صاحبهم إلا بشيءٍ كهذا.

كانت الكلماتُ ثقيلةً ، كأنها حجارةٌ تُلقى في ماءٍ راكد . شعرتُ أنني أقف على الحدّ الفاصل بين لينِ الرحمة وصلابةِ الدولة . لكنّ نفسي ، بما عُرف عنها من شدّةٍ في الحق ، كانت تميل إلى أن بعضَ القلوب لا يوقظها إلا لهيبُ الإنذار.

خرجنا ، ومعنا طلحةُ بنُ عبيد الله ونفرٌ من الصحابة ، تتقدّمنا عزيمةٌ لا تعرف التردد. كانت المدينةُ نائمةً ، غير أنّ الليل كان يقظًا ، يرقب خطانا كما يرقب التاريخُ اللحظاتِ التي تُبنى عليها العصور.

كلُّ خطوةٍ كنتُ أخطوها نحو دار سويلم كانت تفتح في داخلي بابًا من التأمل : ما النفاق ؟ أهو خوفٌ من خسارة الدنيا ؟ أم عجزٌ عن الانخلاع من جاهليةِ المصالح ؟ أم هو مرضُ الروح حين ترى النورَ ثم تُصرّ على العمى ؟

تذكرتُ قول الحكمة : **أشدُّ الظلماتِ تلك التي تسكنُ النفس وهي في وضح النهار.**

بلغنا الدار ، وكانت كأنها وكرُ دخانٍ قبل أن تُمسّه النار . من خلف جدرانها كانت تنبعثُ همساتٌ متقطعة ، كأنها أنفاسُ المؤامرة نفسها. رجالٌ اجتمعوا لا ليبنوا ، بل ليهدموا ؛ لا ليجمعوا ، بل ليفرقوا.

أشعلنا النار.

في اللحظة الأولى ، بدا اللهيبُ كخيطٍ أحمرَ دقيق ، ثم ما لبث أن تمدد كأفعى من نارٍ تلتهمُ الصمت. تصاعد الدخانُ ملتفًا حول سقف الدار ، ثم انخلعت قلوبُ من كانوا فيها ، وسمعنا حركةَ الأجساد وهي تهبُّ مذعورةً تطلب النجاة.

خرجوا فزعين ، تتكسرُ هيبتهم على عتبة الخوف. لم يعودوا زعماءَ همسٍ ومكر ، بل صاروا رجالًا تطاردهم النارُ كما تطارد الحقيقةُ الكاذبين.

وإني لأذكرُ الضحاكَ بنَ خليفة ، وكان من زعماء المنافقين ، كيف حاول أن يقتحم من البيت وثبًا ، فزلّت قدمه ، ووقع على الأرض وقعةً هزّت سكون الليل ، وانكسرت رجله. ارتفع صوته صارخًا ، لا صوتَ قائدٍ بل صوتَ رجلٍ أدركته عاقبةُ مكره :

يا سويلم ! لا تدعني أهلك ، لقد انكسرت رجلي ! ويحكم ، أتدعونني للنار ؟

لكنهم تركوه.

هكذا يفعل الباطلُ بأهله : يجمعهم على المنفعة ، ويفرقهم عند البلاء. فرّوا وتركوه يجرُّ جسده جرًّا، كأنما يجرُّ خلفه عمرًا من الخديعة. كان مشهدُه يختصرُ حكمةَ الزمان :**من حفر حفرةً للناس وقع فيها أولًا.**

رأيته يزحفُ على الأرض ، ووجهُه قد غشيه الذلُّ بعد الكبر ، والخوفُ بعد الجسارة. لم يكن في انكسار رجله ألمُ الجسد وحده ، بل كان

انكسارًا لمعنى أكبر: انكسار الوهم الذي عاش فيه أن الخفاء يحميه ، وأن الجدران تستر ما في القلوب.

جرّ نفسه حتى انتهى إلى بيته ، وطفق ينشد بصوتٍ متهدجٍ يختلط فيه وجعُ الجسد برعبِ الروح :

كادت وبيتِ الله نارُ محمدٍ يشيطُ بها الضحّاكُ وابنُ أبيرقِ

وظللتُ إذ طبقتْ بيتَ سويلمٍ أنوءُ على رجلي كسيرًا ومرفقي

لامٌ عليكم لا أعودُ لمثلها أخافُ ومن تشملْ به النارُ يحرقِ

كان شعرُه، على ما فيه من فزع ، شهادةً على سلطان الحدث. فالكلمةُ حين تخرج من قلبٍ ذاق العاقبة ، تكون أصدقَ من ألف موعظة.

وقفتُ بعد انصراف الناس ، أتأملُ بقايا الدخان وهي تتلاشى في السماء. لم تكن النارُ عندي مجرّد إحراقِ جدران ، بل كانت رمزًا لتطهير الصفّ من دخان الفتنة. ومع ذلك، لم يغب عن قلبي وجهُ النبي ﷺ ، وسكوتُه الرحيم ، وتلك النظرةُ التي تجمعُ بين العلم بالناس والشفقة عليهم.

هنا بدأ حواري الداخلي يشتد :

أكان الحزمُ هو الصواب ؟

نعم ، لأن الجماعةَ لا تقوم على التساهل مع من ينخر أساسها.

أكانت الرحمةُ أولى ؟

نعم ، لأن في أصل الرسالة رحمةً للعالمين.

وبين نعمٍ ونعم ، أدركتُ أن السياسةَ الراشدة ليست انحيازًا لطرفٍ دون آخر ، بل هي معرفةُ موضع كل خلق : متى يكون اللينُ حياة ، ومتى يكون الشدةُ نجاة.

تلك الليلة علمتني أن النفاق ليس مجردَ موقفٍ فكري ، بل هو مرضٌ اجتماعيٌّ نفسيٌّ يفتك بالأمم من داخلها. المنافقُ يعيش ممزقًا بين صورتين : صورةٍ يريد أن يراها الناس ، وحقيقةٍ يخشى أن يراها نفسه. ولذلك كان خوفُه من النار مضاعفًا ؛ لأنها لم تحرق الدار وحدها ، بل أحرقت القناع.

ولقد صدق الشاعر إذ قال :

إذا ما خلا الجبانُ بأرضِ خوفٍ رأى الشجعانَ في عينِ الجبانِ

فالخوفُ يصنع أشباحه ، ويضخم خصومه ، ويحوّل الهمسَ إلى رعد.

أما أبو بكر ، فكان بعد الحدث ساكنَ النفس ، كأنه أدى واجبًا ثقيلًا ثم سلّمه إلى الله. وفي هدوئه حكمةُ القادة الكبار : لا يشمتون ، ولا يتلذذون بالقسوة ، بل يفعلون ما يلزم ثم يمضون.

قال لي بعد أن عدنا:

يا عمر ، ما أشدَّ حاجتنا إلى قلوبٍ تعرفُ متى تلين ومتى تقسو.

فقلتُ ، وأنا أشعر أن النارَ ما زالت تتقد في أعماقي :

إنّ المدينةَ يا أبا بكر لا يحرسها السيفُ وحده ، بل يحرسها صدقُ القلوب. فإذا فسد الصدق ، احتجنا إلى نارٍ توقظ الغافلين.

ثم سكتنا.

كان الفجرُ قد بدأ يرسل خيوطه الأولى ، كأن السماءَ تمحو آثارَ الليل صفحةً صفحة . أحسستُ أن ما جرى لم يكن مجردَ حادثة ، بل درسٌ خالدٌ في بناء الأمم: أن الرحمةَ لا تناقض الحزم ، وأن الدولةَ العادلةَ قد تضطر أحيانًا إلى لهيبٍ قصيرٍ لتمنع احتراقًا طويلًا.

ولعل أبلغ ما يُقال في خاتمة هذا المشهد حكمةُ العرب :

الفتنةُ إذا اشتعلت أحرقت الأخضر واليابس ، وإن أُطفئت في مهدها سلم الجميع.

و هكذا بقيت تلك الليلة محفورةً في ذاكرتي : ليلُ نارٍ صغيرة ، أطفأت نارًا أكبر كانت تتسلل في الظلام ؛ وليلةٌ رأيتُ فيها النفسَ البشريةَ عاريةً من أقنعتها ، بين إيمانٍ يصبر ، ونفاقٍ ينهار ، وحقٍّ يمضي ولو عبر اللهيب.

حين تكلّم الذهبُ وبكت القلوب
مشهدٌ درامي من الاستعداد لغزوة العُسرة

في تلك الليلة التي تثاقل فيها الليلُ على المدينة ، وبدا الأفق كأنّه يحمل أنفاس الصحراء قبل أن تشتعل تحت سنابك الخيل ، جلستُ إلى الفاروق ، عمر بن الخطاب ، أتأمل في وجهه المضيء بخشوع الذكر ووهج الذاكرة.

كان الصمت بيننا كثيفًا ، لا يقطعه إلا رجعُ أنفاسه العميقة ، كأن صدره ما زال يحمل غبار تلك الأيام البعيدة ، أيامٍ كانت فيها الأرواح تُوزن بالإيمان ، والأموال تُقاس بصدق النية.

قلتُ في صوتٍ خفيضٍ تختلط فيه الدهشة بالحنين :

و كيف كان استعداد المسلمين لهذه الغزوة يا أبا حفص ؟

رفع رأسه ببطء ، وحدّق في البعيد ، كأنما انشقّ له جدار الزمن فرأى المدينة كما كانت : وجوهًا مشتعلة بالعزم ، وبيوتًا خفيفة المتاع ، وقلوبًا أثقل من الجبال يقينًا.

قال عمر، و قد انسكب صوته مهيبًا رخيمًا:

اعلم يا بُنيّ أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد الغزو لم يُظهر وجهته ، بل يُورّي بغيرها ، حتى لا يبلغ الخبرُ العدوَّ فيأخذ حذره.

ثم سكت لحظة ، وغاص في أعماق نفسه ، كأنّه يفتّش في ردهات الذاكرة عن أدقّ الظلال ، ثم أردف :

أما في هذه الغزوة ، فقد صرّح بها صراحةً ؛ لشدة الجهد ، وبُعد الشقة ، وعِظَم المؤونة. كانت غزوةً لا تحتمل التورية ، فقد كان الطريق طويلًا ، والحرّ لافحًا ، والعدوُّ عظيم العدد. كنا بحاجة إلى الخيل والإبل ، وإلى الزاد والمال ، وإلى قلوبٍ تعرف كيف تنتصر على خوف الفاقة.

ثم انخفض صوته ، وأخذت ملامحه تزداد عمقًا ، كأن النفس في داخله تُحدّثه :

ما أثقلها من أيام ، يوم امتحن الله به صدقنا ، لا بسيوفنا ، بل بما نحبّ ونملك.

قال : **أخذ رسول الله ﷺ يحضُّ أهل الغنى على النفقة والحمل في سبيل الله ، فكانت كلماته تقع في القلوب موقع المطر على الأرض الظمأى . ما إن يسمعها المؤمن حتى يشعر أن المال الذي بين يديه قيدٌ لا بد أن يُكسر.**

وما كاد يتم حديثه حتى تغيّرت نبرة صوته ، كأن مشهدًا حيًّا انبعث أمام عينيه.

جاءني أبو بكر الصديق ، والدموع تترقرق في عينيه ، فقال : يا عمر ، فاز والله أخونا عثمان بن عفان بالخير كلّه.

قلت له ، وقد هزّني بكاؤه :

وما بال الدموع في عينيك ؟ ما الذي فعله عثمان ؟

قال أبو بكر ، وصوته يرتعش هيبةً وفرحًا :

أنفق نفقةً عظيمةً لم يُنفق أحد مثلها ؛ جهّز عشرة آلاف مسلم بخيلهم وإبلهم وزادهم ، وما يحتاجون إليه ، حتى إنه اشترى لهم الحبال التي تُشدّ بها الأسقية.

هنا أطرق عمر ، وبدت على وجهه لمعة امتنان ، ثم قال :

رحم الله عثمان ، ما كان يرى المال إلا جسرًا إلى رضوان الله. بعض الناس يملكون الذهب ، وبعضهم يملك قلبًا يجعل الذهب ترابًا في سبيل العقيدة.

ثم مال نحوي كأنه يسرّ بسرٍّ من أسرار الروح :

أتدري ماذا قال له رسول الله ﷺ ؟

قلتُ بشغف : ماذا قال ؟

قال ، وعيناه تبرقان :

رفع النبي ﷺ كفّيه إلى السماء و قال :

اللهم ارضَ عن عثمان ، فإني عنه راضٍ . وظلّ من أول الليل حتى طلع الفجر رافعًا يديه يدعو له.

ثم أغمض عمر عينيه لحظة ، كأنه يعيش المشهد لا يرويه :

أيُّ قلبٍ ذاك الذي يُستجاب له من السماء ، وأيُّ روحٍ تلك التي تنفق حتى تستنزل دعاء النبوة ؟

ثم تابع :

ولم يكتفِ عثمان بذلك ، بل جاء في الصباح فصبّ في حجر النبي ﷺ ألف دينار .

هنا تغيّر وجه الفاروق ، وارتعش صوته بخشوع :

رأيتُ رسول الله ﷺ يقلّب الدنانير بيده ويقول : ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم . وكان يكررها حتى بكى المجلس كلّه.

وساد بيننا صمتٌ طويل ، كأن الجملة ما زالت معلّقة في الهواء ، نورًا لا ينطفئ.

ثم قال عمر :

عندها اندفع أبو بكر إلى رسول الله ﷺ بكل ماله ، وقال : يا رسول الله، هذه أربعة آلاف درهم لله وللمسلمين.

قلتُ متابعًا :

فسأله رسول الله : هل أبقيت لأهلك شيئًا ؟

ابتسم عمر ، وفي ابتسامته إجلال :

فقال أبو بكر : أبقيت لهم الله ورسوله.

هنا غاص عمر في داخله ، وأحسست أن صوته صار صوتَ ضميرٍ يحاكم نفسه :

أما أنا ، فقد ذهبتُ بنصف مالي ، و قلتُ:

اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا.

ثم أطرق رأسه ، وخرج صوته حزينًا متأملًا :

لكني ما إن رأيت ما صنع ، حتى عرفت أن للصدق رجالًا لا تُدركهم الأقدام، وإن أسرعت.

إذا غامَرْتَ في شَرَفٍ مَرُومِ فلا تَقنَعْ بما دونَ النّجومِ

ثم أردف :

قلت لرسول الله ﷺ:

يا رسول الله ، أبقيت لأهلي النصف الآخر. فدعا لي بمثل ما دعا لصاحبيّ، غير أنّ نفسي لم تكفّ عن لوم صاحبها ؛ كيف أمسكتُ شيئًا ، وغيري قد بذل الكل ؟

كان صوته هنا نفسيًا داخليًا ، أشبه باعتراف رجلٍ لا يحاكمه الناس بل يحاكمه ضميره :

لِمَ تركتَ شيئًا يا عمر ؟ أكان في القلب بقيةُ تعلق ؟ أكان في النفس خوفٌ على أهلٍ تكفّل الله بهم ؟

ثم رفع رأسه بقوة و قال :

فلما اقترب موعد المسير ، أخذت ما بقي من مالي ، وجهّزت به من منعتهم الحاجة عن التجهيز.

قلتُ متعجبًا :

ولم تترك لأهلك شيئًا ؟ وقد دعا لك رسول الله ﷺ ؟

فنظر إليّ عمر نظرةً فيها عجب من السؤال ، وقال :

لو رأيتَ يا بُنيّ كيف كان المسلمون يتسابقون إلى تجهيز الحملة ، لما لمتني. لقد أنفق عبد الرحمن بن عوف ماله ، وفعل مثل فعل عثمان ، حتى العباس بن عبد المطلب ، على ما كان يُعرف به من إمساك ، جاء بجُلّ ماله.

ثم أشرق وجهه وهو يذكر النساء :

أما النساء ، فقد قدّمن حُلِيَّهنّ ، وما في بيوتهن من طعام ، حتى خُيّل إليّ أن المدينة كلّها قد نزعت زينتها لتلبسها رايةُ الإسلام.

يا لها من صورة اجتماعية نفسية ! مدينةٌ يتحول فيها الخاص إلى عام، والذاتي إلى جماعي ، والفرد إلى أمة.

كان الفقر حاضرًا ، لكن الكرامة كانت أغنى من كل خزائن الأرض.

قلتُ بإعجاب :

أخزيتم أعداء الله من المنافقين يا أبا حفص.

فقطّب عمر جبينه ، وغامت عيناه بذكر تلك الفئة ، و قال :

وهل تظنهم كفّوا عن الكيد ؟ لا والله. خرجوا علينا ونحن نستعد بخدعةٍ أرادوا بها تشتيت أمرنا ، وإضعاف عزائمنا.

ثم سكت، كأن المشهد يثقل على صدره.

في داخله كان صراعٌ آخر :

المؤمن يبذل ماله وقلبه ، والمنافق يبذل حيلته وسمَّه. هكذا تتمايز النفوس عند الشدائد.

ثم تمتم بحكمةٍ تخرج من قلب التجربة :

الشدائدُ تُظهر معادنَ الرجال، كما تُظهر النارُ صفاء الذهب.

كانت المدينة يومئذٍ مسرحًا دراميًا مهيبًا :

قومٌ يبيعون الدنيا ليشتروا الآخرة ، وآخرون يبيعون ضمائرهم ليشتروا الوهم .

وفي وسط هذا المشهد كان النبي ﷺ يبني أمةً لا تقوم على السيف وحده، بل على النفس التي تهزم شحّها أولًا.

وهكذا ظلّ الفاروق يحدّثني ، لا عن غزوةٍ فحسب ، بل عن **علم النفس الإيماني في لحظة العسرة** ؛ كيف يتحول الإنسان من فردٍ يخاف الفقر إلى روحٍ ترى المال ظلًا زائلًا ، وترى البذل خلودًا.

وما زلتُ أسمع صدى كلماته يتردد في أعماقي :

ليس النصرُ أن تغلب عدوك ، بل أن تغلب نفسك قبل أن تلقاه.

ذلك كان استعداد المسلمين لغزوة العُسرة :

قلوبٌ سبقت الأقدام ، ودموعُ فرحٍ سالت على وجوه الرجال ، وذهبٌ تحوّل إلى دعاء ، ونساءٌ صنعن من الحُلِيّ تاريخًا ، ورجالٌ حوّلوا الفاقة إلى مجد.

فيا لها من أمةٍ إذا دعاها الواجب ، لبّت بقلوبها قبل أموالها، و يا له من جيلٍ صدق فيه قول الحكيم:

من بذلَ بعضَه عاش، ومن بذلَ كلَّه خُلِّد.

مسجدُ الضِّرار
حينَ تلبسُ الفتنةُ ثوبَ العبادة

كان الليلُ قد أرخى سدولَه على المدينة ، وانسابت الظلالُ فوق جدرانها الطينية كأنها أسرارٌ تمشي على أطراف الأصابع . في ذلك السكون الذي يسبق انبثاقَ الفجر ، كان الصمتُ نفسه يبدو كأنه يُصغي ؛ فالمدينة التي عرفت نورَ الوحي ، عرفت أيضًا وجوهًا تُخفي خلف الإيمان أقنعةً من دخان.

التفتَ الفتى إلى عمر ، وعيناه متّقدتان بفضولٍ يختلط بالقلق ، وقال بصوتٍ خفيضٍ كمن يخشى أن يسمعه التاريخ قبل أن يكتبه :

وما تلك الخدعة يا أمير المؤمنين ؟ أتعرف مسجدَ الضِّرار ؟

سكنت ملامحُ عمر لحظة ، ثم غامت عيناه بذلك البريق البعيد الذي لا يجيء إلا من ذاكرةٍ حملت من الحوادث ما يثقل القلب. تنهد تنهدةً طويلة ، كأنما يزيح عن صدره غبارَ أعوامٍ مضت ، ثم قال بصوتٍ وقورٍ تنساب فيه الحكمة كما ينساب الماء في مجراه :

نعم يا بُنيّ، ذاك جرحٌ من جراح المدينة، ذكره الله في محكم تنزيله ، ليبقى شاهدًا على أن الشرّ قد يتسلل حتى إلى أبواب المساجد. قال تعالى" : والذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين"...،

وما كانت تلك الآية إلا فضحًا لمكرٍ أراد أصحابه أن يجعلوا من العبادة خنجرًا في خاصرة الجماعة.

سكت عمر قليلًا، ثم مال بجسده إلى الأمام ، كأنما يريد أن يُدخل الفتى إلى قلب الحادثة لا إلى ظاهرها فقط.

كان وراء ذلك أبو عامر الراهب ، من الأوس ، رجلٌ عرفته المدينة يومًا شريفًا مطاعًا ، مهيبَ المقام بين قومه ، ثم انقلب قلبُه لما أشرق نورُ النبوة . بعضُ النفوس يا بُنيّ لا تحتمل أن ترى الحق إذا جاء من غير بابها ، ولا تطيق أن ينصرف المجدُ إلى غير اسمها.

ثم رفع بصره إلى السماء ، كأنما يخاطب سنةً من سنن البشر:

إذا ضاق صدرُ المرءِ عن نورِ غيرِهِ

توهّمَ أنَّ المجدَ نقصٌ لذاتِهِ

لقد كان أبو عامر يرى في مجيء الرسول ﷺ نهايةَ سلطانٍ كان يحلم به ، فانقلب من رجلٍ يُنتظر منه الخير إلى خصمٍ لا يهدأ له بال . كان بغضُه دفينًا ، لا يطلبُ هزيمةَ المسلمين في ميدانٍ فقط ، بل كان يريد هزيمتهم في المعنى ، في الروح ، في اجتماع الكلمة.

هنا غاص الفتى في صمتٍ ثقيل . كان يحاول أن يتخيل تلك النفس : كيف يتحول الشرفُ إلى حقد ؟ وكيف تنقلب المكانةُ إلى رغبةٍ في الهدم ؟ وفي داخله دار حديثٌ صامت :

"ما أضعف الإنسان حين يعجز عن الانتصار على نفسه. أيمكن للحسد أن يطمس البصيرة حتى يرى المرءُ خرابَ قومه خلاصًا لذاته ؟"

كأن عمرًا قرأ ما يدور في خلده ، فقال :

أخطرُ الناس يا بُنيّ ليس عدوًّا يعلن سيفه ، بل عدوٌّ يبتسم لك وهو يُخفي في ردائه نارًا.

ثم استأنف :

اجتمع أبو عامر بثُلّةٍ من المنافقين ، فيهم حزامُ بن خالد، وثعلبةُ بن حاطب ، وكنانةُ بن عبد ياليل . وكان اللقاءُ في دارٍ أُغلقت نوافذها ، لكن الشرَّ لا تُغلق عليه الأبواب . هناك تدارسوا كيف يُفرّقون صفّ المسلمين قبل غزوة الشام.

قال الفتى متحمسًا ، و قد استيقظ في ذاكرته خبرٌ قديم :

كنانة ! أهو نفسه الذي ردّ رسولَ الله ﷺ في الطائف ذلك الردَّ القاسي ؟

أومأ عمر ، وفي صوته شيءٌ من الأسى الممتزج باليقين :

هو بعينه . ذاك الذي قال يومها في غطرسةِ جاهل : أوَ لم يجد الله من يرسله غيرك ؟ كلمةٌ خرجت من فمٍ أظلمَه الكبر ، فلم يرَ في النبوة إلا ما يُشبع سخريته.

ثم انخفض صوت عمر حتى بدا كأنه يعيد تمثيلَ المشهد :

في المجلس المظلم ، قال أبو عامر ساخرًا ، وابتسامةُ المكر ترتسم على شفتيه :

إذن فقد عوّل محمدٌ على غزو الشام.

فردّ كنانة ، وعيناه تضيقان بحقدٍ دفين :

لو رأيتَ المسلمين وما ينفقون على الحملة لأيقنتَ يا أبا عامر أنهم عازمون هذه المرّة على الثأر لمن قُتل منهم في مؤتة.

ضحك أبو عامر ضحكةً باردة ، ضحكةَ رجلٍ لا يرى في دموع الناس إلا مادةً للسخرية:

رأيتهم يوم عادوا من مؤتة ، يبكون ويدخلون دورهم خزيًا ، والناسُ يصيحون :

يا فرّار ! أفررتم في سبيل الله ؟

فيواسيهم محمدٌ بقوله

:ليسوا بالفرّار ، ولكنهم الكرّار إن شاء الله .وها هم اليوم يريدون أن يثبتوا صدقَ كلمته.

هنا ارتفع صوت كنانة ، يحمل خوفًا أكثر مما يحمل غضبًا :

فهل نتركهم يطؤون الشام ، ويكسبون قبائل العرب ، ويُظهرون أمرهم على الروم ؟ والله لو فعل محمدٌ ذلك، لبطنُ الأرض خيرٌ من ظهرها !

فانتصب أبو عامر في مجلسه ، وقد بدا في عينيه بريقُ المؤامرة :

ومن قال لك إننا سنتركه يحقق ما يريد ؟

تدخل ثعلبة ، وفي صوته ارتباكُ المتردد الذي يريد الشرّ لكنه يخشى عواقبه :

وما نملك أن نفعل ؟

هنا أشرق وجهُ أبي عامر بذلك النور الكاذب الذي يسبق العاصفة ، و قال :

نملك الكثير يا ثعلبة . أما أنا فذاهبٌ من ساعتي إلى الشام ، أحذّر هرقل وأخاه تيودور من جيش المسلمين ، وأما أنتم فازرعوا الشكّ بين الناس ، وشيّدوا لهم مسجدًا يكون ظاهرُه الرحمة وباطنُه الفتنة. اجعلوه موضعَ اجتماعٍ للضعفاء ، ومأوى للمترددين ، وسلاحًا يضربُ وحدةَ الصف.

هنا ارتجف الفتى ، وقال بصوتٍ يكاد يختنق :

مسجد ؟ ! كيف يجرؤون أن يجعلوا بيتًا يُذكر فيه اسم الله أداةً للتفريق ؟

نظر إليه عمر طويلًا ، ثم قال ببطء الحكيم الذي جرّب طبائع البشر :

يا بُنيّ، ليست الأماكنُ هي التي تُقدّس النفوس ، بل النفوسُ هي التي تمنح الأماكن معناها . كم من مسجدٍ ارتفعت جدرانُه ، وانخفضت فيه النيات ، فصار خرابًا وإن عُمّر بالحجارة.

ثم أنشد :

وما كلُّ بناءٍ للعبادةِ طاهرٌ إذا فسدَتْ فيه السرائرُ والقَصدُ

فكم قبةٍ شادوا ، وكم من منارةٍ ولكنَّ روحَ الحقِّ في أهلِها تُفقدُ

في تلك اللحظة، لم يكن الفتى يسمع فقط ؛ كان يعيشُ المشهدَ من الداخل. رأى في خياله أبا عامر وهو يغادر المدينة ، يحمل في صدره بقايا مجدٍ ذابل ، وخوفًا مَرَضيًا من انتصار الحق. كان الرجلُ في أعماقه مهزومًا قبل أن يُهزم في الواقع ؛ فالهزيمة الحقيقية تبدأ حين يصير المرءُ أسيرَ حقده.

حدّث الفتى نفسه :

"ما أقسى أن يتحول الذكاء إلى مكر ، والحكمة إلى دهاء ، والمكانة إلى رغبةٍ في الانتقام . إن الشرّ ليس دائمًا جهلًا ؛ أحيانًا يكون معرفةً ملوّثة".

أكمل عمر ، وقد بدا صوته كأنه يخطُّ بمداد الزمن :

بُنِي المسجدُ في ظاهر الأمر لذي العلة والضعف وأهل الليالي الممطرة ، لكن باطنه كان مجلسًا للمنافقين ، يترقبون فيه عودةَ أبي عامر من الشام ، ويخططون لتفريق المؤمنين . أرادوا أن يخلقوا ولاءً موازيًا ، ومركزًا روحيًا زائفًا ، يضرب أصلَ الاجتماع الإسلامي.

ثم صمت هنيهة ، و قال :

إنها لعبةُ الرموز يا ولدي ؛ حين يعجز الخصم عن هزيمتك في الميدان ، يحاول سرقةَ رموزك ، فيبني من صورتك سلاحًا عليك.

كانت هذه الحكمة تسقط في قلب الفتى كالمطر على أرضٍ عطشى.

ثم قال عمر ، ونبرةُ الحزم ترتفع في صوته :

لكن الله لا يترك المكرَ يكتمل. نزل الوحيُ كالسيف القاطع ، يكشف السرائر ، ويفضح الأقنعة . لم يُؤمر رسولُ الله ﷺ أن يصلي فيه ، بل أُمر بهدمه ، ليبقى درسًا خالدًا:

أن الدين ليس شكلًا ، وأن الباطل قد يتزيّا بزيّ الصالحين.

هنا أحسّ الفتى برجفةٍ في روحه ، كأن المعنى تجاوز القصة إلى الإنسان نفسه. همس :

إذن فالمعركةُ الكبرى ليست بين جدرانٍ وجدران ، بل بين نيةٍ ونية ؟

ابتسم عمر ، ابتسامةَ مَن رأى الفهمَ يولد في قلب تلميذه ، وقال :

صدقت. إن أخطر مسجد ضرار قد يبنيه الإنسان في داخله ، حين يجعل من الفضيلة ستارًا للهوى ، ومن الكلمة الطيبة جسرًا إلى غرضٍ خبيث.

ثم أردف بحكمةٍ كأنها خاتمةُ الدرس :

صلاحُ الظاهرِ لا يُغني إذا فسدَ الباطنُ واستبدَّ الغرور

فالقلبُ بيتُ اللهِ ، إن طابَ اهتدى

وإن اعتلّ َ، ضلَّتْ منه الدروبُ

طال السكون بينهما ، لكنّه لم يكن سكونَ فراغ ، بل سكونَ معنى يستقرّ في الأعماق.

رفع الفتى رأسه أخيرًا ، وقد تغيّر شيءٌ في نظرته إلى الناس والتاريخ والنفس البشرية، و قال :

الآن فهمتُ يا أمير المؤمنين ؛ ليست كلُّ فتنةٍ تحمل سيفًا ، بعضُها يأتي في هيئةِ محراب.

فأجاب عمر ، وعيناه تشعّان بذلك الصفاء الذي تصنعه التجربة :

نعم يا بُنيّ، ولهذا كان الإخلاصُ هو الحارسَ الأول للأمة. ما هُزمت أمةٌ من خارجها حتى تصدّعت من داخلها ، وما تفرّق جمعٌ إلا بدأ التصدعُ من قلبٍ مريض.

ثم نهض، وألقى كلمته الأخيرة التي بدت كأنها وصيةُ تاريخٍ كامل:

احذر أصحابَ الشعارات البراقة إذا خلت قلوبُهم من الصدق ، فإن أخطرَ الخراب ما جاء في ثياب البناء ، وأشدَّ الظلمة ما تسللت من نافذة النور.

مسجدٌ على حافةِ الفتنة
حكايةُ الضِّرار بين ظاهرِ العبادة وباطنِ الدَّهاء

في مساءٍ مدينيّ ثقيل ، كانت الأزقةُ تتنفسُ همسًا ، والبيوتُ الطينيةُ تلوذُ بسكونٍ خادع ، كأن المدينةَ تُخفي في صدرها سرًّا يتخلّق في الظلام . جلس أبو عامر ، وقد انعقدت على وجهه ظلالُ حقدٍ قديم ، يحدّق في الوجوه الملتفّة حوله ، وجوهٌ أرهقها التردّد ، وأوقدتها نوازعُ الطموح والضغينة ، فقال بصوتٍ خفيضٍ لكنه نافذٌ كحدِّ السيف :

فبمَ تأمرنا يا أبا عامر؟

ساد صمتٌ قصير ، صمتٌ يشبه ذلك الفراغ الذي يسبق العاصفة ، ثم رفع رأسه ، و قال في تؤدة من يحوك مصيرًا :

ما الأمرُ الذي يجمع هؤلاء الناسَ في اليوم خمسَ مرات ؟

تبادل القوم النظرات ، كأنهم يفتشون في السؤال عن بابٍ خفيٍّ إلى المكيدة ، ثم قال أحدهم : **الصلاة.**

ابتسم أبو عامر ابتسامةً باردةً ، فيها من الخبث بقدر ما فيها من اليقين ، و قال :

نعم ، الصلاة ، والصلاةُ لا تكون إلا في المسجد . أوَليس أولَ ما صنع محمدٌ بعد يومين من هجرته إلى المدينة أن بنى مسجد قباء ؟

هنا تدخّل كنانة ، وكان ذا ذهنٍ يلتقط الخيط من أول إشارة :

صدقت . المسجدُ هو الذي جمع أمرهم ، وصار مركزَ دائرتهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية ، بل صار قلبَ دولتهم النابض.

أطرق أبو عامر لحظةً ، كأنه ينزل إلى قاع نفسه يستخرج من ظلمتها فكرةً أشدَّ سوادًا ، ثم قال :

إذًا فلنفرّق جمعهم بإنشاء مسجدٍ ثانٍ. تشرعون في الدعوة إلى الصلاة فيه ، فيتفرّق شمل المسلمين ، ومن جاءه وسمع منّا ما نقول في محمدٍ وكبار أصحابه ، مال إلينا ، وصار لنا في المدينة حزبٌ يناوئه.

ارتجف بعض الجالسين ؛ فالفكرةُ في ظاهرها عبادة ، وفي باطنها خنجرٌ يُغرس في خاصرة الجماعة . قال أحدهم في قلق :

ومن يدريك يا أبا عامر أن المسلمين سيصلّون في ذلك المسجد؟

رفع رأسه ، وبدا في عينيه بريقُ مكرٍ لامع :

إذا صلّى فيه محمد، فلن يجد المسلمون حرجًا في الصلاة فيه، كما صلّى صاحبهم.

هنا تقدّم ثعلبة ، وفي صوته نبرةُ من وجد لنفسه موضعًا في المؤامرة :

إن لي أرضًا فضاء قرب قباء ، فإن أنفقتم من فضول أموالكم على بنائها تركتُها لكم.

تهللت الوجوه ، وانساب الشيطان بينهم كالماء في الشقوق . قال أبو عامر :

فإذا انتهيتم من البناء ، فاذهبوا إليه قبل أن يسافر في غزوته ، وادعوه للصلاة فيه . فإذا فعل ، لم يتحرّج المسلمون من وروده ، وصرفناهم بذلك عن مسجد قباء.

لكن أحدهم ، وكان لا يزال أسير بقايا ضمير، قال في تردّد :

فماذا لو أبى محمدٌ علينا ما نريد ؟

هنا اعتدل أبو عامر في مجلسه ، كأنما استعلى بفكرته على كل اعتراض :

وما يمنعه من الصلاة في مسجدكم ، وهو الذي يدعو إلى صلاة الجماعة في كل خطبة ؟ إذا أحسنتم بناءه ، وزيّنتموه ، وبالغتم في إكرام من يدخله ، وذكرتم ذلك له ، جازت عليه خدعتنا.

X

ويمضي الفاروق في سرده ، وقد ارتسمت في صوته مرارةُ الذكرى ، كأن الحادثة ما تزال تنبض في ذاكرته :

وشيّد المنافقون مسجدهم مسرعين قبل خروجنا إلى الغزوة . فلما فرغوا منه ، جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله ﷺ ، و قال : يا رسول الله ، إنّا بنينا مسجدًا لذي العلّة والحاجة ، والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، ونحب أن تأتينا فتصلّي لنا فيه.

سكت الراوي قليلًا، ثم أردف بنبرةٍ يغمرها التوقير :

وكان رسول الله ﷺ أولَ داعٍ إلى بناء المساجد ، يعلم أنها مواضعُ السكينة ، ومشاتلُ الإيمان ، ومجالسُ الشورى ، ومصابيحُ القلوب . لذلك لم يردّهم ردًّا مباشرًا ، بل قال :

" إني على جناح سفرٍ وحالِ شغل ، ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلّينا لكم فيه ".

هنا رفع الابنُ رأسه ، وقد تفتحت في نفسه دهشةُ الفهم :

فكأنه ﷺ قد أجّل الصلاة في ذلك المسجد إلى ما بعد عودته من الغزوة ؟

ابتسم الأب ابتسامةً يختلط فيها الإعجابُ بالتسليم ، و قال :

وما كان ذلك يا ولدي إلا لأمرٍ أراده الله تعالى. إن العنايةَ الإلهيةَ كانت تُدبّر ما وراء المشهد ، وتكشف ما خفي في الصدور. بعدها خرجنا إلى غزوتنا.

سأل الفتى ، وقد استبدّ به شغفُ التفاصيل:

ومتى خرجتم بالجيش يا أبا حفص على وجه التحديد ؟

فأجاب ، وعيناه تسبحان في زمنٍ بعيد :

خرجنا لعشرٍ خلون من رجب، في العام التاسع من الهجرة. كنّا عشرةَ آلافٍ من المسلمين ، بين راكبِ بعيرٍ وفارسٍ على خيل ، وقد اشتدّ الحر ، وبعدت الشقّة ، وآن أوانُ الابتلاء.

ثم أطرق قليلًا ، كأن الذكرى قد لامست في قلبه موضعًا موجعًا ، فسأله الفتى :

وهل تخلّف عنكم أحد ؟

تنهد أبو حفص ، وفي التنهد ثقلُ تاريخٍ كامل :

حديثُ هؤلاء المخلفين يا ولدي يطول ، ففيه من دقائق النفس البشرية ما يعجز عنه الوصف ؛ فيه ضعفُ الإنسان إذا خاصمه الحرُّ والتعب و الجهد ، وفيه صدقُ التوبة إذا أيقظها الندم و الاستغفار ، وفيه المنافق الذي اتخذ العذرَ ستارًا يتحجج به عن الخروج ، والصادق الذي مزّقه الأسى.

ثم أضاف بصوتٍ كأنما خرج من عمق التجربة :

ومن لم يذق مُرَّ التخلّف ساعةً تجرّعَ طولَ العمرِ ذلَّ الملامِ

وسكت قليلًا ، ثم قال كالحكمة :

المساجدُ تُبنى بالحجارة ظاهرًا ، لكنها في الحقيقة تُبنى بالنيات.

فمسجدُ قباء قام على التقوى ، فصار نورًا يفيض على القلوب ، وأما مسجد الضرار فقام على الحسد والتفريق ، فكان جدارًا قائمًا فوق هاويةٍ من النفاق.

وفي أعماق أبي عامر ، كانت النفسُ تمور بصراعٍ معقّد ؛ لم يكن حقده وليد لحظة ، بل كان ثمرةَ هزيمةٍ نفسيةٍ قديمة ، هزيمةِ الزعامة حين سلبه الإسلامُ المكانةَ التي كان يحلم بها . لقد رأى في المسجد سلطةً رمزيةً تتجاوز الجدران ؛ فهو ليس موضع سجودٍ فحسب ، بل مصنعُ ولاءٍ وانتماء. لذلك أراد أن يهدم الفكرةَ بالفكرة ، وأن يشقّ الصفَّ من قلب أكثر رموزه قداسة.

وهنا تتجلّى المفارقةُ الدرامية : أن المكانَ الواحد قد يكون بيتًا لله إذا صلحت النيّة ، وقد يكون معبرًا للفتنة إذا فسدت السريرة . وما أشدّ ما يفضح التاريخُ القلوبَ حين تتزيّا بلباس الصلاح !

و لذلك قال الحكماء :

إذا فسدَ المقصدُ ، استحالَ الحسنُ قبحًا ، وإذا صلحتِ النيّةُ ، صار الترابُ محرابًا.

هكذا ظلّت المدينةُ يومئذٍ بين مسجدين :

مسجدٍ بُني ليجمع الأرواح حول معنى الإيمان ،ومسجدٍ بُني ليزرع الشكَّ في صدور المؤمنين.

وبين المسجدين، كانت النفوسُ تُختبر ، والوجوهُ تُكشف ، والقلوبُ تُعرَض على مرآة الوحي؛ فمنها ما ازداد نورًا ، ومنها ما انكشف سوادُه.

تلك يا ولدي ليست قصةَ بناء مسجدٍ فحسب ، بل قصةُ **صراع المعنى**:

بين الإخلاص و الرياء ، بين الوحدة و الفرقة ، بين ظاهر العبادة وباطن السياسة.

وما التاريخُ إلا أرواحٌ تمشي في صور الحوادث ، وما أعظم قوله تعالى في كشف تلك السرائر : **[لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا]**

فكانت آيةً خالدةً تعلمنا أن الأماكنَ تستمدُّ شرفها من المقاصد ، وأن الله لا ينظر إلى الجدران ، بل إلى ما وراءها من قلوب.

وحديثُ المخلفين ، له ليلةٌ أخرى ، يا بُنيّ، فيها من دموع التوبة ما يلين له الحجر.

على تخوم الشام
همسُ الرهبان وصليلُ النبوءة

استعدَّ المسلمون استعدادًا عظيمًا لحربهم المرتقبة مع الروم ؛ فقد كان الخطرُ ، على مشارف الشام ، رابضًا كوحشٍ أسطوريٍّ يترصّد الدولة الإسلامية الفتيّة ، تلك التي ما كادت تلتقط أنفاسها من لهيب الجزيرة حتى وجدت نفسها أمام إمبراطوريةٍ عتيقةٍ تحمل في ذاكرتها أمجاد القرون ومرارة الهزائم.

كانت الشام يومئذٍ ليست مجرد أرضٍ تتنازعها الجيوش ، بل مسرحًا نفسيًا واجتماعيًا تتصارع فيه العقائد ، وتتشابك فوقه المصالح ، وتتعالق في فضائه أرواح البشر بين ولاءٍ وخوفٍ وطمع.

في الجانب الآخر، كان **ثيودور**، شقيق إمبراطور الروم هرقل ، يقف في قصره الحجريّ المنيف ، يطلّ من شرفته على سهول الشام الممتدة كبحرٍ من سنابل صامتة.

الريح الباردة تمسُّ أستار القاعة ، فتبعث فيها رجفةً كأنها صدى قلقٍ يسكن صدره.

لم يكن القائد الروميّ يهاب الحرب في ذاتها ، فقد عركته الوقائع ، وجرّب مكايد الفرس ، ورأى المدن تسقط ثم تعود ، غير أن اسم **محمد** كان يثير في أعماقه قلقًا من نوعٍ آخر ؛ قلق الفكرة حين تصير أمة ، وقلق الإيمان حين يتحوّل إلى سيفٍ.

كان يبعث الرهبان والقسيسين بين قبائل العرب المقيمة في الشمال الغربي من الجزيرة العربية ، ينسجون من الكلمات ولاءاتٍ خفية ، ويستنهضون في الغساسنة ذاكرة النصرانية القديمة ، حتى رضي كثيرٌ منهم أن يكونوا أتباعًا للروم ، يرون في خدمتهم مجدًا وفي حمايتهم نجاة.

وفي تلك اللحظات المشحونة ، دخل **أبو عامر الفاسق** ، مندوب اليهود ومنافق المدينة ، بخطواتٍ مترددة تخفي وراءها دهاءً متراكمًا. كان وجهه يحمل غبار الطرقات ، لكن عينيه كانتا تلمعان ببريق رجلٍ يعرف أن الكلمة قد تسبق السيف في صناعة المصير.

رفع ثيودور رأسه، وحدّق فيه طويلًا، ثم قال بصوتٍ ثقيلٍ كصوت بابٍ حديديٍّ يُغلق:

ومن يدريني أنك لا تكذبني أيها الأعرابي ؟

تقدّم أبو عامر قليلًا ، وأحنى رأسه في مزيجٍ من الخضوع والمكر ، ثم قال :

سل عني يوحنا بن رؤبة ، صاحب أيلة ، فلي معه صحبةٌ قديمة.

ضاقت عينا ثيودور ، وانكمشت ملامحه في ريبةٍ واضحة:

أنت من جوف الجزيرة ، ويوحنا يحكم أيلة من قبل أخي الإمبراطور هرقل ، فمتى كانت بينكما هذه الصحبة ؟

هنا تنفّس أبو عامر بعمق ، كمن يفتح صندوقًا من الذكريات:

منذ ظهر فينا محمد، وأنا أطوف بين قبائل العرب أحرّضهم عليه . وكان يوحنا يُجيرني كلما جئت إلى أرضه ، أو دنوت منها.

ساد صمتٌ ثقيل ، لم يُسمع فيه إلا احتكاك أصابع ثيودور بمقبض كرسيه المرصع .

وفي داخله دار حوارٌ آخر ، أعمق من الكلمات المنطوقة :

أهو صادق ؟ أم عينٌ بثّها محمد في ثنايا الخوف ؟ لكن، ما الذي يدفع رجلًا إلى هذا القدر من المجازفة إن لم يكن يحمل حقدًا حقيقيًا ؟ لقد هزمنا الفرس ، نعم ، لكن هؤلاء العرب الجدد يقاتلون بعقيدةٍ لا نعرف لها مثيلًا.

قطع أبو عامر عليه شروده ، وقال بصوتٍ يقطر تهويلًا :

لقد لقّنت الفصائل الرومانية جيش المسلمين درسًا دمويًا في مؤتة ؛ قتلنا فرسانهم وقادتهم وحملة راياتهم ، ولولا أن خدعنا خالد بن الوليد وانسحب بمن بقي منهم خلال الليل ، لأبدناهم في ذلك اليوم.

لمعت في عيني ثيودور شرارةُ كبرياء ، غير أنها لم تخلُ من حذر.

قال أبو عامر ، متعمّدًا أن يُسقط كلماته كالحجارة في ماء النفس :

إنهم هذه المرة قادمون نحوكم في أربعين ألف مسلم.

انتفض ثيودور واقفًا : **ماذا ؟ أربعون ألف رجل ؟**

وعلى رأسهم محمد نفسه. ألكم بهؤلاء طاقة ؟

هنا انفجر غضب ثيودور ، وتكلم بصوتٍ ارتجّت له أروقة القاعة:

ويحك! أتقول هذا لمن أوقع بالفرس، واستردَّ منهم مقدسات المسيحية ؟

لكن أبا عامر لم يتراجع ، بل اقترب خطوةً أخرى ، وقال ببرود الخبير بدهاليز النفس :

إنما جئتُ لأبصّركم ، كي تستعدوا لجيش المسلمين.

عاد الشكُّ ينهش عقل ثيودور ، فحدّق فيه طويلًا و قال :

ما أحسب إلا أنك عينٌ علينا ، أرسلك محمد لتدخل الخوف إلى قلوبنا منه.

ابتسم أبو عامر ابتسامةً باهتةً ، كمن يعرف أن الحقيقة حين تُشبه الكذب تُربك العقول :

والله ما يبغض محمدًا أحدٌ كما أبغضه . سل عني يوحنا بن رؤبة إن كنت تثق بما يقول.

يوحنا عندي غير متهم.

فسله عن أبي عامر الراهب... عني يا مولاي القائد.

هنا انعطف الحوار إلى بعدٍ نفسيٍّ أعمق ، حين سأل ثيودور: **نصرانيٌّ أنت ؟**

خفض أبو عامر رأسه ، وفي صوته نبرة رجلٍ يخلط الاعتراف بالتمثيل :

كنت أعبد الوثن ، حتى زرت يوحنا في بعض جولاتي فاتبعت دينكم ، فلما عدتُ إلى الجزيرة سمّاني محمد : أبو عامر الفاسق، لأني حرّضت قبيلة ثقيف عليه.

ساد الصمت من جديد.

وفي نفس ثيودور ، كان التاريخ كلّه يمرّ كالأشباح : الفرس ، القدس ، الصليب ، القبائل العربية ، واسم محمد الذي يتردد كقدرٍ صاعد من الصحراء.

أيمكن لأمةٍ خرجت من الرمال أن تبلغ أبواب الشام ؟ أهي مجرد غزوة ، أم بداية تحوّلٍ لا يوقفه جيش ؟ إن الأفكار أخطر من السيوف، وإذا قاتل القوم بعقيدةٍ تسكن صدورهم ، فكم يلزمنا من الحديد لنكسرها؟

ثم قال أخيرًا ، بصوتٍ حاسم : **أنت آمنٌ بالشام حتى أستوثق.**

تنفّس أبو عامر الصعداء ، لكنه تابع ضغطه النفسي :

أيها القائد تيودور ، إلى متى التسويف ؟ حتى تفجأك قوات محمد ؟ ابعث من فورك إلى يوحنا رجلًا من ثقاتك يأتيك بخبري.

هزّ ثيودور رأسه و قال : **أنت على حق. سأبعث إليه اليوم.**

ثم اقترب أبو عامر ، وانخفض صوته حتى صار أشبه بالهمس "

وحتى يأتيك الخبر ، فاستمع ما عندي عن جيش محمد ، حتى تُحسن الاستعداد له.

وهنا بدا المشهد كأنما انقسم إلى عالمين :

عالم القاعة الرومية الموشّاة بالأعمدة والصلبان والخرائط ، وعالم الصحراء البعيدة حيث كان المسلمون يشقّون الطريق إلى الشام ، يحملون يقينًا لا يُقاس بعدد.

إذا الإيمانُ هزَّ الروحَ يومًا توارى الخوفُ وانهزمَ الحديدُ

وكان ثيودور، رغم كل ما يملك من جندٍ وعدّة ، يشعر في أعماقه بأن أخطر ما يقترب من الشام ليس أربعين ألف مقاتل ، بل أربعون ألف قلبٍ امتلأت بمعنى لا تراه العيون.

وهكذا ظلّ الليلُ يهبط على الشام بطيئًا، فيما القلوبُ في القصر الرومي تضجّ بالأسئلة، والسماء فوق الصحراء تُنصت لخطى جيشٍ يكتب صفحةً جديدةً من التاريخ.

ومن يتهيب صعودَ الجبالِ يعش أبدَ الدهرِ بين الحفر

فما بين خوف الروم ويقين المسلمين ، كانت الأيام تُعدُّ لميلاد مشهدٍ تاريخيٍّ سيظلّ صداه يتردّد في كتب السِّيَر ووجدان الأمم.

مشهدٌ من تبوك بين يقين الفاروق وظلال النفاق

لم نكن قد ابتعدنا كثيرًا عن معسكر الجيش ، وما تزال آثار المدينة تسكن الذاكرة كعطرٍ عالقٍ في ثوب المسافر ، حين آثر بعض الرجال أن يلزموا القرب من بعير الفاروق عمر بن الخطاب ؛ كأن في ظله طمأنينةً تستعذبها القلوب في هجير الصحراء . كانت الشمس يومئذٍ كأنها سيفٌ من نارٍ مسلول ، يضرب الهامات بلا رحمة ، والرمال تمتدّ أمام الأبصار بحرًا من لهبٍ أصفر ، لا حدَّ له إلا الأفق المشتعل.

وقف عبد الله بن أبي بن سلول يقترب في تؤدةٍ مقصودة ، يجرُّ خلفه ظلال قومه كما تجرّ الريح غبارًا كئيبًا . كان وجهه يحمل ذلك المزيج العجيب من التردّد والمكر ، ومن الخوف المتدثّر بثوب الحكمة الزائفة . ولمّا دنا من عمر ، قال بصوتٍ حاول أن يكسوه ثوب النصح:

يا أبا حفص ، إن رجالي يقولون : هذه حربٌ غير متكافئة ، وقتالٌ لا تؤمَن مغبّتُه.

رفع عمر رأسه إليه ، وعيناه تبرقان ببصيرةٍ تعرف ما وراء الألفاظ، لا ما عليها فقط. كان يدرك أن الكلمات ليست إلا ستارًا رقيقًا تخفي وراءه نفسًا تضطرب بين الجبن والحسد ، بين خوف الجسد ومرض الروح.

قال الفاروق ، بصوتٍ ثابتٍ كوقع الحجارة في الوادي :

و ماذا تعني بهذا يا ابن سلول ؟

هنا تنفّس ابن سلول بعمق ، كأنما يتهيّأ لإلقاء سهمٍ مسموم في قلب الصفّ ، ثم قال :

أعني أن القوم سيعودون على أنفسهم باللائمة لخروجهم مع رسول الله ﷺ ، حين يرون ما هم مقدمون عليه من شدّةٍ لا طاقة لهم بها.

تأمّله عمر طويلًا. وفي أعماقه كان حديثٌ آخر يدور ؛ حديث رجلٍ خبر النفوس ، وعرف كيف يختبئ الضعف في عباءة العقل. حدّث نفسه : ما أشدَّ فقر هذه الروح إلى اليقين ! إنّها لا ترى في الطريق إلا العناء ، ولا في الرسالة إلا ثمنها العاجل.

ثم قال جهرةً :

وأنت، ماذا تقول يا ابن سلول ؟

قال المنافق ، وقد بدا في صوته شيءٌ من التلويح المبطّن :

يا أبا حفص ، كن منصفًا . إن هذا الحرّ الشديد سيهلكنا ، ولم نقطع من الصحراء إلا قليلًا ، فما بالك إذا بعدت بنا الشُّقّة ، وامتدّت بنا الفيافي ؟

فاشتدّ وجه عمر ، وانعقد حاجباه كأنما اجتمعت فيهما غيوم الغضب :

ويحك ! أما كنت تعلم هذا قبل خروجك بمن معك ؟ أوَلم يذكر رسول الله ﷺ للناس جميعًا أنهم مقدمون على مشقّةٍ وصعوبةٍ لم يشهدوا مثلها في حروبهم السابقة ؟ أوَليس لهذا بيّن لهم الوجهة صراحةً ، ولم يُورِّ عنها كما كان يفعل في غيرها من الغزوات ؟

كان صوت عمر يحمل في طبقاته معنىً نفسيًا عميقًا : غضب المؤمن حين يرى الحقيقة جليّة ثم يصرّ آخر على التعلّل بالوهم.

قال ابن سلول ، وفي نبرته تهديدٌ خفيّ :

يا عمر، وهل يغلب الروم أحد ؟ أما رأيت يوم هزموا الفرس واستردّوا ملكهم ؟

فقاطعه عمر على الفور ، وقد انقدح في عينيه برق الحسم :

لا تكثر من هذا السخف يا ابن سلول ! كأنك عوّلتَ منذ البداية على أن تتخلّف عن رسول الله ﷺ .

تراجع الرجل قليلًا ، ثم قال متذرّعًا بالجماعة ليخفي رأيه الفردي :

إنما أنا على رأي من خرجتُ معهم ، يريدون العودة إلى يثرب ، وما أحسبني قادرًا على منعهم من تنفيذ ما أرادوا.

ابتسم عمر ابتسامةً مرّة ، فيها من الأسى على النفوس ما فيها من الاحتقار للجبن ، و قال :

وما يمنعك أنت من البقاء معنا ؟ أوَلا ترى إلى ولدك عبد الله بن عبد الله بن أبي يسير في كتيبة رسول الله ﷺ، يفديه بنفسه ؟

عند ذكر الابن ، ارتجف شيءٌ في أعماق ابن سلول ؛ لا عاطفة الأبوة ، بل جرح الكبرياء. ذلك الفتى الذي اختار الإيمان على دم الأب ، والحق على إرث الزعامة . ومن هنا خرج صوته مشحونًا بالغلّ :

ذاك فتى أحمق ، وما لي وللحمقى !

فهدر عمر ، كأن صوته صخرةٌ تهوي من شاهق :

أبعدك الله وأصحابك ! والله ما يكربنا أن يتخلّف عن الجيش أربعمائة رجلٍ من المنافقين ، ولا يفتّ تخلف هؤلاء في عزيمة أربعين ألف مسلم.

وكانت هذه الكلمات، في بعدها النفسي والاجتماعي ، ترسم الفارق بين جماعةٍ تؤسَّس على العقيدة ، وأخرى تقوم على المصالح الهشّة . فالمجتمع الذي يقوده الإيمان لا تضعفه الأعداد ، بل تضعفه الأرواح المريضة إن تُركت تعبث بالصف.

وهكذا كرّر ابن سلول فعلته القديمة يوم غزوة أحد؛ انفضّ عن رسول الله ﷺ وعاد بمن معه إلى المدينة . غير أن المشهد هذه المرة كان مختلفًا؛ فلم يعد للانسحاب ذلك الأثر الذي كان يوم أُحد ، لأن الصفّ المؤمن قد نضج ، وتعلّم كيف يميّز بين حرارة الإيمان وسراب الادّعاء.

ومضى الجيش الإسلامي قدمًا ، يشقّ الصحراء شقًّا ، لا يمنعه الجدب ولا يرده الظمأ . كان العطش يضغط على الحناجر حتى صارت الكلمات نفسها جافةً متكسّرة . وراح بعض المسلمين يتلفّتون إلى القرب الفارغة ، وإلى الإبل التي بدت كأنها تخبّئ في أجوافها آخر أسرار النجاة.

تقدّم نفرٌ منهم إلى رسول الله ﷺ و قالوا :

يا رسول الله، اشتدّ العطش بالناس.

فأمرهم النبي ﷺ أن ينحروا بعض الإبل ، ويشقّوا أكراشها ، ويشربوا ماءها ؛ مشهدٌ دراميّ تختلط فيه قسوة الواقع برحمة التدبير ، وتنكشف فيه هشاشة الجسد البشري أمام اتساع الصحراء.

لكن عمر ، الذي كان عقله دائمًا يسبح في أفق الرجاء كما يثبت على أرض الأسباب ، اقترب من النبي ﷺ وق،ال بأدب المؤمن الواثق :

يا رسول الله، قد عوّدك الله من الدعاء خيرًا ، فادعُ الله لنا.

ما أعمق هذه الجملة ! إنها تختصر نفسية الفاروق : رجلٌ يأخذ بالأسباب ، لكنه لا ينسى أن وراء الأسباب ربّ الأسباب.

فأمر النبي ﷺ بإقامة صلاة الاستسقاء . ونهض عمر بين الصفوف يصيح بصوتٍ ملأ الفضاء :

أيها المسلمون ! إن رسول الله ﷺ يدعو إلى صلاة الاستسقاء. تجمّعوا ، أيها المسلمون ، لصلاة الاستسقاء !

اصطفّ الناس على الرمال المحرقة ، ووجوههم إلى السماء ، وقلوبهم بين الخوف والرجاء. كانت الصحراء ساكنةً كأنها تنصت ، والسماء صافيةً في قسوتها ، لا غيمة فيها ولا ظلّ.

وفي تلك اللحظة ، غاص السرد إلى أعماق النفس الجمعية : جيشٌ أنهكه العطش ، لكنه لم يفقد ثقته بربّه ؛ مجتمعٌ تماسكه الروح قبل السلاح ، ويشدّه الدعاء قبل الزاد.

فلما فرغوا من صلاتهم ، لم تلبث السماء أن بدّلت وجهها. تجمّعت السحب من أطراف الأفق ، كأنها جموع رحمةٍ تسابق الخطى إلى المؤمنين. ثم انهمر المطر عذبًا غزيرًا ، فضجّ الناس بالفرح ، وتعالت الأصوات :

يا رسول الله، لقد ساق الله إلينا السحاب !

الماء! المطر !

اشربوا أيها المسلمون !

املؤوا شنَّكم ، واحملوا ما تحتاجون إليه من هذا الماء !

وانطلقت الضحكات بعد طول صمت، وسالت الحياة في العروق كما سال الماء في القِرَب.

هنا بدا المشهد كأنه قصيدةٌ من قصائد القدر: قومٌ تركهم المنافقون لحرّ الصحراء ، ففتح الله لهم أبواب السماء.

إذا ضاقَتِ الدُّنيا فربُّكَ أوسعُ وفي اليأسِ أبوابُ الرجاءِ تُشرَّعُ

ولعلّ الحكمة التي تلخّص هذا المشهد التاريخي النفسي الاجتماعي هي : **أن الصفّ لا يخذله قلّةُ العدد ، وإنما يخذله تصدّعُ اليقين. فإذا صحّت القلوب ، جاء الغيث من حيث لا يحتسب الناس.**

وهكذا ظلّ عمر في تلك اللحظة يتأمل السماء والمطر والوجوه المبتلّة بالفرح ، ويحدّث نفسه في عمقٍ إنسانيّ بالغ :ما أضيق أفق المنافق ، يرى الصحراء ولا يرى ربّ الصحراء ؛ يرى الحرّ ولا يرى لطف السماء ؛ يرى الروم ولا يرى الله.

ثم مضى الجيش ، والمطر في القِرب ، واليقين في الصدور ، وتبوك تلوح في الأفق موعدًا بين التاريخ والإيمان.

تبوك

ظلالُ الغياب وخطى أبي ذرّ في لهيب الصحراء

كان الجيشُ يمضي في صمتٍ مهيب ، كأنّ الرمالَ نفسها تنصتُ إلى وقع الأقدام ، وكأنّ الصحراءَ الممتدةَ بين الأرض والسماء قد تحوّلت إلى صفحةٍ صفراء يخطّ عليها التاريخُ سطورَه بالنار والعرق واليقين. كانت غزوةُ تبوك أكثرَ من مسيرٍ إلى قتال ؛ كانت امتحانًا للقلوب ، وميزانًا تُوزن فيه الأرواح قبل الأجساد ، وتُعرف فيه معادن الرجال حين يشتدّ القيظ ، ويضيق الزاد ، وتلوح الرومُ في الأفق كغيمةٍ من حديد.

ومضيتُ أدور ببصري بين صفوف الجيش ، أفتّش في الوجوه عن وجوهٍ ألفتها ، وعن أسماءٍ ما عرفتُ لها يومًا غيابًا عن موطنِ بذلٍ أو ساعةِ بلاء. كان في النفس قلقٌ خفيّ ، كأنّها تستشعر فراغًا لا يملؤه إلا رجالٌ مخصوصون ، أولئك الذين إذا ذُكر الجهادُ كانوا أولَ الملبّين ، وإذا نادى الحقُّ سبقوا إليه كأنّ في أرواحهم أجنحةً من نور.

التفتُّ إلى الفاروق عمر بن الخطاب ، وكان يمشي في هيبةٍ تشبه الجبل ، وفي عينيه بريقُ يقينٍ لا يطفئه حرّ الصحراء ، وقلتُ بصوتٍ خافتٍ يحمل شيئًا من الحيرة :

يا أبا حفص ، كأنّنا نفتقد أقوامًا بعينهم ، بعضَ صحابةِ رسولِ الله ﷺ الذين ما عُرف لهم تخلّفٌ قط . لا أرى لهم أثرًا، فما الذي جرى ؟ أين أبو ذرّ الغفاري ؟ وما وراء تخلّفه إلى هذه الساعة ؟

توقّف عمرُ لحظةً ، كأنّه يفتّش في ذاكرته كما كنتُ أفتّش في وجوه الرجال ، ثم قال بصوتٍ عميق :

و اللهِ يا بُنيّ ، ما أدري ما آخرُ أمره.

قلتُ ، وفي نفسي شيءٌ من الظنّ الذي ما كاد يخرج حتى ندمتُ عليه :

أتحسبه خشي الحرّ ؟

فإذا بعمر يلتفت إليّ التفاتةً هزّت وجداني ، وفي عينيه إنكارُ المحبّ الذي يعرف الرجال بصدقهم :

أبو ذرّ يخشى الحرّ في سبيل الله ؟ ! أتقول هذا يا ولدي ؟ ثم سكت هنيهة ، كأنّه يعلّمني قبل أن يجيبني ، و قال :

لا يُظنّ بأمثال أبي ذرّ إلا خير . الرجلُ كان يتجهّز معنا ، ولا أدري أأتمّ جهازه قبل خروجنا أم عاد إلى غفارٍ ليأتي بما يُتمّ عدّته .

ثم أطرق عمرُ قليلًا ، واستعاد مشهدًا مضى ، و قال بصوتٍ تسرّبت إليه مهابةُ الذكرى :

و قد قال بعضُ الصحابة مثلَ قولك هذا لرسول الله ﷺ ، فقال له أبو بكر : يا رسول الله، تخلّف أبو ذرّ .

فقال ﷺ ، وهو أعلمُ الناس بسرائر أصحابه" :**لا تقولوا في صاحبكم إلا خيرًا، فسيلحقه الله بكم".**

كانت كلماتُ النبي ﷺ تسري في القلب سريانَ الماء البارد في الهجير ، وتغرس في النفس معنىً جليلًا : أن الرجالَ لا يُحكم عليهم بظاهر غيابهم ، بل بما في قلوبهم من صدق النيّة.

X

ولمّا اقترب الجيشُ من تبوك ، وبدأت ملامحُ الأرض تتبدّل ، أسرع بعضُ الصحابة إلى رسول الله ﷺ ووجوهُهم تشعُّ دهشةً وفرحًـا :

يا رسول الله ، إنّا نرى رجلًا يمشي وحده على الطريق ، لا يركب ناقةً ولا جوادًا ، وقد حمل متاعه وسلاحه على كتفيه !

فابتسم النبيُّ ﷺ ابتسامةَ الواثقِ بوعد السماء ، وقال في هدوءٍ عجيب :

كن أبا ذرّ.

يا لروعةِ تلك الكلمة ! لم تكن مجرّدَ توقّع ، بل كانت قراءةً لجوهر رجلٍ عرفه النبيُّ ﷺ : رجلٌ إذا انقطعت به الأسبابُ صنعت له عزيمتُه طريقًا.

مضى أبو بكرٍ يستطلع الأمر، وعاد مسرعًا وقد تهلّل وجهُه :

يا رسول الله ، هو والله أبو ذرّ !

عندها ارتسمت على ملامح النبي ﷺ مسحةُ رحمةٍ وشفقةٍ وإجلال، وقال كلمته التي بقيت خالدةً في صفحات التاريخ و الوجدان :

رحم الله أبا ذرّ ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويُبعث وحده".

X

ما إن لحق أبو ذرّ بالركب حتى كان أوّل ما صنع أن ألقى بنفسه إلى رسول الله ﷺ ، يقبّل يديه الشريفتين ، وعيناه تفيضان بمزيجٍ من الإعياء والفرح والسكينة.

قال بصوتٍ متقطّعٍ من شدّة المسير ، لكنّه ثابتٌ بثبات الإيمان :

يا رسول الله، تخلّفتُ عن الخروج لبقائي في غفار ، فقد مرضت أمّي مرضًا شديدًا ، وبقيتُ عندها حتى وارَيتُها التراب. ثم ركبتُ ناقتي وعليها عدّتي وطعامي وسلاحي ، وتبعتُ آثاركم ، غير أنّ ناقتي نفقت في الطريق ، فأخذتُ متاعي فحملتُه على ظهري ، وانطلقتُ ماشيًا ، وأنا أدعو الله ألّا أموت قبل أن أُبليَ في سبيل الله ورسوله البلاءَ الحسن.

هنا شعرتُ أنّ الصحراءَ كلّها قد انكمشت أمام هذا الرجل. ما قيمةُ اتساعها إذا كان في القلب اتساعُ أبي ذرّ ؟ وما معنى العطش إذا كان اليقينُ يروي الروح ؟

تسلّلتُ إلى نفسي خواطرُ كثيرة :

أيُّ معدنٍ هذا الذي صيغت منه روحُ أبي ذرّ ؟ أيُّ حبٍّ ذاك الذي يجعل الرجل يحمل الدنيا على ظهره ولا يثنيه عن اللحاق برسول الله شيء ؟

إنّها النفسُ إذا صفَت ، صارت أقوى من الجسد ، وإذا امتلأت بالمعنى ، هان عليها وجعُ الطريق.

ولقد صدق الشاعر :

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ

وتأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ

X

ثم عدتُ أسأل عمر ، وقد انفتح في قلبي بابُ تأمّلٍ آخر :

يا أبا حفص ، لم يكن أبو ذرّ وحده من كبار الصحابة الذين تخلّفوا عن الركب، فهناك أبو خيثمة أخو بني سالم بن عوف.

قال عمر :

وهناك كعبُ بن مالك، الشاعرُ الفارس، أحدُ نقباء بيعة العقبة.

قلتُ :

ومرارةُ بن الربيع.

قال :

وهلالُ بن أمية.

وسكتَ قليلًا ، ثم أضاف بصوتٍ يغلبه الأسى :

نعم ، هؤلاء ما عُرف عنهم التخلّف عن غزوةٍ قط.

قلتُ :

فما الذي منعهم عن الخروج ؟

تنفّس عمرُ بعمق ، كأنّ صدره يحمل همَّ الأمة كلها ، ثم قال :

يا ولدي ، لقد كان في الناس من يتحرّق شوقًا للخروج معنا لقتال الروم ، ولكنّهم لا يملكون ناقةً ولا بعيرًا. وليس كلُّ الناس في قوّةِ أبي ذرّ وعزمه ، يطوون الصحراءَ على أقدامهم. بعضُ هؤلاء جهّزهم ذو النورين عثمان بن عفّان ، جزاه الله خيرًا ، وآخرون لم يجدوا من يحملهم.

هنا بدا البعدُ الاجتماعيُّ للحدث جليًّا : لم يكن الغيابُ دائمًا ضعفَ إيمان ، بل قد يكون فقرًا قاسيًا ، أو ظرفًا خانقًا ، أو امتحانًا تتكسّر فيه الإرادات الصغيرة وتثبت النفوس الكبيرة.

ثم قال عمر :

فأرسل هؤلاء صاحبًا لهم إلى رسول الله ﷺ ، هو أبو موسى الأشعري.

فقلتُ وأنا أبتسم لذكره :

صاحبُ الصوت الذي كان رسول الله يحبّ أن ينصت إليه وهو يرتّل القرآن، ويقول له : **" لقد أوتيتَ مزمارًا من مزامير آل داود ".**

فقال عمر :

ـــصدقتَ يا ولدي . ولهذا بعثه هؤلاء الفقراء إلى رسول الله ﷺ.

قال أبو موسى : يا نبيَّ الله، إنّ أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم.

فقال أبو بكر : يا أبا موسى ، لا يجد رسولُ الله ما يحملهم عليه.

فقال أبو موسى ، وقلبُه يعتصر حزنًا : فما يفعل هؤلاء يا رسول الله؟ سيهلكون من فرط الحزن إذا خرجنا ولم يكونوا معنا !

عندها قال أبو بكر ، وفي صوته روحُ النجدة التي عُرف بها :

تعالَ معي يا أبا موسى ، نُنادِ في يثرب أصحابَ المال أن يحملوا إخوانهم.

وما هي إلا جولةٌ مباركة ، حتى أثمرت عشرةَ أباعر ، خرج عليها عشرةٌ من أصحاب أبي موسى.

هنا أدركتُ أنّ المجتمعَ المؤمن لا يقوم على بطولة الفرد وحده ، بل على تكافل الجماعة ؛ فالفارسُ الذي يملك بعيرًا يحمل أخاه الذي لا يملك ، والغنيُّ يسند الفقير ، والصوتُ الحزين يجد في الأمة من يجيبه.

وفي الحكمة العربية :

الناسُ للناسِ ما دام الوفاءُ بهمُ

والعسرُ واليسرُ أوقاتٌ وساعاتُ

X

ثم عدتُ إلى ما يشغلني ، و قلتُ :

و هؤلاء الذين ذكرناهم : كعب ، ومرارة ، وهلال ، ألم يستأذنوا رسول الله ﷺ في البقاء ؟

قطّب عمرُ جبينه ، وبدت على وجهه حيرةُ العارفِ بالرجال ،

و قال :

ما رأيتُهم فيمن جاء يستأذن ، وما كنتُ أظنّهم يفعلون.

قلتُ:

ولمَ يا أبا حفص؟

فقال ، وصوته يخرج من عمقِ بصيرةٍ نافذة :

يا ولدي ، وهل كان يأتي فيستأذن رسولَ الله في البقاء إلا من غُمِض عليه في النفاق ؟ أمّا هؤلاء فمن المؤمنين الصادقين الصالحين.

سكتُّ ، لكنّ السؤال ظلّ يتردّد في داخلي كصدى بعيد:

إذا لم يكن فقرًا، ولا مرضًا، ولا نفاقًا، فما الذي أخّرهم؟

قال عمر ، وقد بدا عليه التأمّل :

واللهِ يا ولدي ، ما أدري لهذا سببًا.

وكانت تلك الحيرةُ نفسها درسًا نفسيًّا عظيمًا :

فالإنسانُ قد يعرف الحقّ ، ويحبّه ، ويعزم عليه ، ثم تؤخّره لحظةُ تردّدٍ واحدة ، أو تغلبه نفسه بالتسويف حتى يفوته الركب. ليست كلُّ الهزائم صاخبة ؛ بعضُها يبدأ بصمتٍ داخليّ ، بفكرةٍ تقول: "سألحق بهم غدًا"، ثم يأتي الغدُ وقد ابتعد الموكب.

وهنا مكمنُ الدراما الإنسانية : الصراعُ بين يقين القلب وضعف النفس ، بين حرارة الشوق وبرودة التأجيل.

ولعلّ أصدقَ ما يُقال في ذلك قول الحكيم :

إيّاكَ والتسويفَ ، فإنّه بحرٌ يغرقُ فيه الهالكون.

وهكذا ظلّ الجيشُ يمضي ، وكنتُ أمضي معه ، غير أنّني لم أعد أرى الرمال وحدها؛ صرتُ أرى النفوسَ وهي تُختبر ، والقلوبَ وهي تُعرّى أمام نفسها ، والرجالَ بين من غلبته روحه فسبق ، ومن غلبته لحظةٌ من التردّد فتأخّر.

وفي تلك الصحراء لم يكن الطريقُ إلى تبوك فقط ، بل كان الطريقُ إلى أعماق النفس البشرية، حيث يُصنع المجدُ أو يولد الندم.

غزوة تبوك
مولد الإمبراطورية الإسلامية وارتجاف عرش الروم

لم تكن **غزوة تبوك** مجرد مسيرٍ عسكريٍّ في قيظ الصحراء ، ولا رحلةَ سيوفٍ ورماحٍ إلى تخوم الشام ، بل كانت ـ في الوعي التاريخي العميق ـ **اللحظة التي وُلد فيها معنى الإمبراطورية الإسلامية** ؛ يوم خرج الإسلام من حدود الجزيرة النفسية قبل حدودها الجغرافية ، وانتقل من طور الدفاع عن البقاء إلى طور صناعة المصير.

كان العالم يومئذٍ يرزح تحت أثقال قرونٍ من الوهم ؛ أعناقٌ أذلّتها الخرافة ، وقلوبٌ كبّلتها الأساطير ، وأرواحٌ استمرأت السجود لكل ما تراه العين : **للنار إذا اشتعلت ، وللخشب إذا صُلب ، وللتماثيل إذا نُحتت ، بل للمخلوق الضعيف نفسه إذا ألبسته الكنيسة ثوب القداسة** . و في ذلك الضباب العقدي الكثيف ، جاء صوت التوحيد صافياً كنبعٍ في صخرٍ عطشان : **لا معبود بحق إلا خالق السماوات والأرض**.

وكان القرآن قد حسم هذا الجدل منذ البدء ، في خطاب يهزّ وجدان الإنسان هزّاً :

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ...﴾

لكن أكثر القوم عتوا عن أمر ربهم ، واستكبروا عن نور نبيهم ، وأصرّوا على عبادة المخلوق ، **فصمّوا آذانهم عن نداء الفطرة ، وأعموا بصائرهم عن الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء**.

ومن وراء أسوار القسطنطينية ، كان **هرقل** يرقب هذا التحوّل بقلق الملوك الذين يشمّون رائحة الزلازل قبل وقوعها. جلس في قاعة العرش الواسعة ، تحيط به الأعمدة الرخامية والشموع المرتجفة ، غير أن الارتجاف الحقيقي كان في داخله.

قال بصوتٍ خفيضٍ حاول أن يكسوه صلابة الإمبراطور :

أيريد هذا العربي ، ساكن الرمال ، أن يهدم في أعوامٍ ما بنته الكنيسة في ستة قرون ؟

ساد صمتٌ ثقيل ، كأن الجدران نفسها تخشى الجواب.

ثم نهض هرقل ، واندفع صوته فجأة كالسيف :

استعدوا يا معشر الروم! سيّروْا الكتائب التي لم تُهزم ، واقتحموا عرينه ، وائتوني به وبأصحابه في القيود إلى بيزنطة ، حتى تشهد بطارقة الأرض أن الملك لي ، وأن بابا روما لا يملك إلا أن يقرّ بحقي في حكم الدنيا.

غير أن الكلمات ، مهما اشتد بريقها ، كانت تخفي ما هو أعمق :

خوفاً يتسلل في شقوق النفس الإمبراطورية .

كان هرقل يعرف، في أكثر زوايا عقله سرية ، أن هذا ليس خصماً كسائر الخصوم ؛ ليس ملكاً ينازع ملكاً ، بل **عقيدة تنازع التاريخ نفسه**.

في ليله الطويل ، حين تنطفئ أبهة العرش ، كان يحاور نفسه :

كيف لرجلٍ خرج من صحراء لا ماء فيها إلا السراب ، أن يوقظ الأمم من نومها ؟ كيف لرجالٍ حفاةٍ بالأمس أن تتزلزل لخطواتهم حدود الشام ؟ أهو سحر العقيدة ؟ أم أن السماء نفسها تمضي معهم ؟

وكان هذا الحوار الداخلي يمزقه أكثر مما تمزقه أخبار الجيوش.

ثم استدعى أخاه **تيودور** ، قائد الجيش ، وألقى إليه بالخطة التي فضحت خوفه أكثر مما أظهرت دهاءه :

حاربهم أولاً بالعرب المقيمين على حدود الشام : الغساسنة ، وأهل أيلة ، وجرباء ، وأذرح . جرّب بأسهم أمام محمد وأصحابه ، فإن ثبتوا فبها ، وإن انهزموا ، أمددتك بالفصائل الرومانية.

توقّف قليلاً ، ثم قال بصوتٍ أوطأ :

وما أحسبهم ينهزمون.

رفع تيودور عينيه ، كأنه لمح في وجه الإمبراطور ما لم يره من قبل : **ظلال ريبةٍ في الرجل الذي قهر الفرس واستعاد الصليب**.

خرج تيودور ، وبقي هرقل وحده.

في تلك الوحدة ، لم يكن يحاصره فقط هاجس الهزيمة ، بل كانت حياته الخاصة تزيده تمزقاً:

عشيقةٌ تتمنّع عليه فتجرح غروره ، وزوجةٌ لا تكفّ عن التآمر في دهاليز القصر ، وحاشيةٌ تبتسم بأفواهها وتخفي الخناجر في أرديتها.

كان الملك من حوله متّسعاً ، لكن صدره يضيق كزنزانة.

وتمتم لنفسه :

ما أشدّ وحدة الملوك حين يخافون.

ولمّا جاءه **أبو عامر الفاسق** ، يحمل أخبار جيش المسلمين ، ازداد اضطرابه.

كتب إلى تيودور رسالةً تقطر حذراً:

استدرجهم داخل أرض الشام ، وإياك أن تلقاهم بكتلة جيشك . إن انهزمت أمامهم فلن تستطيع حماية دمشق نفسها. راوغهم ، وأدخلهم أرضاً لم يعتادوا القتال فيها.

وهنا ينهض السؤال التاريخي كالصاعقة :

ما وراء هذا الجبن الهرقلي ؟

أليس هرقل هو نفسه الذي ردّ المدّ الفارسي ؟ أليس هو الذي استعاد للصليب مكانته في وجدان الروم ؟ أليس هو الذي هتف الناس باسمه من أنطاكية إلى القسطنطينية ؟

بلى.

ولكنّ الفرق بين الأمس واليوم أن هرقل كان بالأمس **يقاتل بشراً يشبهونه في فهم الملك والسياسة** ، أما اليوم فهو يواجه رجالاً **لا يرون الموت إلا جسراً ، ولا الدنيا إلا ممراً ، ولا النصر إلا وجهاً من وجوه الإيمان.**

وفي الجهة الأخرى ، كان المشهد مختلفاً كل الاختلاف.

خرج رسول الله ﷺ بجيش العسرة ، في قيظٍ لو ذابت فيه الصخور ما عُذرَت .

الصحراء تمتدّ كبحرٍ من نار ، والريح تلفح الوجوه كأنها ألسنة لهب ، والزاد قليل ، والعدو عظيم ، والمسافة طويلة.

لكن النفوس التي ربّاها الوحي كانت ترى ما وراء الرمل والسراب.

كان في قلب كل رجلٍ منهم يقينٌ يقول :

"ليس الطريق إلى الشام ، بل إلى قدر الأمة".

كان بعضهم يناجي نفسه :

أيُعقل أن نقف اليوم على تخوم الروم ، ونحن الذين كنا بالأمس مستضعفين في مكة ؟

فيجيبه قلبه :

إذا كان الله معك ، صغرت المسافات ، وانهارت الإمبراطوريات.

وهنا تتجلّى العظمة النفسية للشخصية المحورية : **النبي القائد**.

لم يكن يقود جيشاً فحسب ، بل كان يقود **تحوّلاً في وعي الإنسان العربي** ؛ ينقله من الانحباس في حدود القبيلة إلى الانفتاح على رسالة العالم.

كان يدرك أن تبوك ليست معركة سيوف بقدر ما هي **معركة هيبة**.

أن يصل المسلمون إلى تلك التخوم ، بثباتٍ وعزم ، فهذا وحده كفيلٌ بأن يجعل القبائل والإمبراطوريات تعيد حساباتها.

ولذلك ، حين بلغ الجيش الإسلامي تبوك ، كان الروم قد تراجعوا ، أو تفرّقوا ، أو ابتلعتهم رهبة المواجهة.

لقد كانت **أول ضربةٍ تقصم ظهر الروم في الأرض قبل أن تقع السيوف** ؛ ضربةً نفسيةً ومعنويةً أعمق من كل طعنة.

ومن أبدع مفارقات التاريخ أن هرقل ، المنتصر على الفرس ، هُزم هنا **بشبح جيشٍ لم يلتقِه**.

ذلك لأن الحرب ، في جوهرها ، تبدأ في العقل قبل الميدان.

قال حكيم العرب : **إذا هِبتَ أمراً فقعْ فيه ، فإنّ شدة توقّيه أعظمُ مما تخافُ منه.**

لكن هرقل آثر التوجّس ، فصار خوفه عدواً خامساً في صفوفه.

أما المسلمون ، فقد عادوا من تبوك وهم لم يخوضوا معركة تقليدية ، لكنهم عادوا بما هو أعظم :

هيبة الدولة ، واعتراف الحدود ، وبدء انهيار النفوذ الرومي في قلوب العرب المتنصّرة وحلفاء بيزنطة.

لقد بدأت القبائل تنظر إلى المدينة لا بوصفها مدينةً دينيةً ناشئة ، بل **عاصمة قوةٍ صاعدة تغيّر خرائط الأرض.**

ومن هنا كان اسم تبوك محفوراً في الذاكرة لا باعتبارها غزوةً بلا قتال ، بل باعتبارها **لحظة الانعطاف الحضاري.**

لقد وُلد فيها وعي الإمبراطورية :

إمبراطورية لا تقوم على الذهب والرخام وحدهما ، بل على **العقيدة التي تحرر الإنسان من عبودية الإنسان.**

وصدق الشاعر حين قال :

إذا غامرتَ في شرفٍ مرومِ فلا تقنعْ بما دونَ النجومِ

فقد غامر المسلمون يوم تبوك في شرف الرسالة ، فبلغوا من آفاق التاريخ ما لم تبلغه أممٌ تكدّست في خزائنها الكنوز.

ولعل أعجب ما في المشهد كله أن هرقل ، في أعماقه ، كان يعلم أن ما يواجهه ليس مجرد توسع سياسي . كان يدرك ـ وإن كابر ـ أن **روحاً جديدة قد دخلت التاريخ.** روحٌ تقول للإنسان :

لا تركع لتمثال ، ولا لملك ، ولا لكنيسة ، ولا لأسطورة ، بل **ارفع رأسك لخالقك وحده ، تكن حراً في الدنيا والآخرة.**

وهكذا ، لم تكن تبوك نهاية حملة ، بل **بداية زمن.**

زمنٌ ستسقط فيه الشام ، ثم مصر ، ثم فارس ، ثم تتراجع روما نفسها أمام أمواج العقيدة الجديدة.

ومن رحم تلك الرمال الملتهبة ، خرجت أمةٌ تعرف سرّ الحكمة الخالدة :

من عرف غايته، هانت عليه الطريق.

وكانت غاية المسلمين يومئذٍ أكبر من غنيمة ، وأسمى من انتقام ، وأبعد من حدود الجغرافيا:

أن يحرروا الإنسان من أوهامه، ويعيدوا للروح وجهتها نحو السماء.

تلك هي تبوك :

مولد الإمبراطورية الإسلامية ، وارتعاش أولٍ في عصب الروم ، وإعلانٌ بأن الصحراء إذا حملت رسالة السماء ، غلبت قصور الرخام.

هرقل على حافة النبوءة

حوارٌ مع إمبراطورٍ تأكله الظلال :

لم يجبنْ إذن عن مواجهة أربعين ألفَ مسلمٍ جاؤوه من أقصى الجنوب، يطوون الفيافي كأنهم قدرٌ لا يُرَدّ ، وليس بينهم وبين قاعدتهم في المدينة خطوطُ مواصلاتٍ آمنة ، ولا مددٌ يُرجى ، ولا حصنٌ يُلوذون به إن اشتدّ الوطيس.

كان السؤالُ يشتعل في صدري كجمرةٍ تحت الرماد ، وكنتُ أحدّق في وجه الرجل الذي دوّخ الشرق والغرب بدهائه ، وأقرأ في تقاطيع ملامحه تاريخَ إمبراطوريةٍ تتآكل من الداخل كما تتآكل الأخشابُ العتيقة بالسوس.

سمعنا الرجلُ، فمال برأسه قليلًا ، ثم قال بأسلوبه المراوغ الذي اشتهر به في تاريخ بيزنطة ، بصوتٍ خفيضٍ كأنما يخرج من دهليزٍ بعيد:

تريد أن تعرف يا فتى سبب خوفي ؟

قلتُ ساخرًا ، وأنا أُخفي اضطرابًا غامضًا :

أليس لهذا جئناك من وراء الزمن والمسافة ؟

رفع عينيه إليّ ، وكانت فيهما بقايا سلطانٍ قديم ، و قال :

ولا تتهمني بالخَرَق والبَلَه والاستكانة إلى الأوهام والخرافات ؟

قلت:

هذا يتوقف على ما عندك يا إمبراطور الروم . ولكن قبل أن يطول حوارنا ، اسمح لي بسؤالٍ أرجو ألا يُغضبك.

قال وهو يضم عباءته الأرجوانية إلى صدره :

فقل.

قلت:

في أرض الغساسنة ، وفي كثيرٍ من بلاد الشام ، يقولون عن عرشك ما لا يليق.

قطّب حاجبيه ، وبدت في وجهه مسحةُ ضيقٍ ممزوجةٍ بفضول:

وماذا يقولون ، وأنا الذي نشرت المسيحية في أرضٍ كانت لا تعبد غير الأوثان ؟

قلتُ وأنا أتعمّد أن أنفذ إلى جرحه النفسي الأعمق :

يقولون إنك تحكم الإمبراطورية ، وإن زوجتك ماريا تحكمك ، وأما هي فيحكمها عشيقها الضابط اليوناني الوسيم أبولونيوس. فما مدى الصدق في هذه المقولة ؟

ساد صمتٌ ثقيل ، حتى خُيّل إليّ أن القصر نفسه حبس أنفاسه.

ثم قال هرقل ، بلا حياءٍ ولا مواربة ، كمن تعب من ستر العار:

صادقةٌ كلها ، لسوء الحظ. بل أزيدك : إن ماريا لم تعد تكتفي بأبولونيوس ، إنها الآن تقضي لياليها كلها مع الراهب صفرنيوس في داره ، وهذا الراهب أخطر عليّ من الجميع.

قلت :

و لِمَ ؟

قال ، وهو يضغط على الكلمات كأنها حجارة :

لأنه مؤيَّدٌ من البطارقة جميعًا ، ويطمع أن يغدو كبير بطاركة بيت المقدس.

هنا شعرتُ أنني لا أحاور إمبراطورًا ، بل إنسانًا مسحوقًا بين سلطة العرش وسلطة المذبح ؛ بين خوف السياسة وابتزاز الروح.

كان هرقل ، في عمق نفسه ، رجلًا تحكمه الهواجس أكثر مما تحكمه الجيوش. لقد بدا لي كمن يجلس على قمة جبلٍ من ذهب ، لكنه يسمع تحت قدميه تصدّع الصخور.

قلت :

فلمَ تُبقي على ماريا ؟ وسوابقك كثيرة في قتل الزوجات والعشيقات.

انتفض كأنني طعنته بخنجر ، وقال في رعبٍ صادق :

تطلب مني أن أقتل ماريا ؟ ومن يحميني من البطارقة إذا قتلتها؟

قلت بحدّة :

فأين سلطانك إذن ؟

فضحك ضحكةً قصيرةً حزينة ، كأنها شظيةُ مرارة ، و قال :

ومن قال لك إن لأباطرة بيزنطة ، منذ قيام الإمبراطورية ، سلطانًا حقيقيًا ؟ اذكر لي واحدًا منهم ، واحدًا فقط، نجا من الموت العنيف بتحريض هؤلاء البطارقة ، بل أحيانًا بأيديهم ! كل أباطرة بيزنطة ماتوا ميتاتٍ فاجعة.

ثم سكت لحظة ، وأردف بصوتٍ غائم :

بالحرق ، بالخنق ، بالإغراق ، بالإلقاء من صخور الجبال ، بالسيف ، بالخنجر ، بالحربة ، بالسم ، أعرف عشرةً منهم على الأقل سلّط عليهم البطارقة الكلابَ المسعورة وهم في مخادعهم.

وتذكرتُ قول الحكيم العربي :

"الملكُ يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم".

كان الظلم هنا ليس ظلم الرعية وحدها ، بل ظلم الخوف الذي يجعل الإمبراطور عبدًا لمن حوله.

قلتُ و أنا أنفذ إلى لبّ ذاكرته السوداء :

أعرف واحدًا من هؤلاء الأباطرة دسّ له ولده حيّةً رقطاء في فراشه ، أباك.

ارتجف صوته ، وبدت في وجهه شروخُ الندم :

ألا ينسى لي التاريخ هذه أبدًا ؟ لو لم أقتله لقتلني البطارقة. هددوني بالصلب بين أمي وأختي إن لم أقتل الإمبراطور . يا فتى ، دعنا من هذه الذكرى الفاجعة.

ثم نهض ، وأخذ يتمشى في القاعة ، كأنما يفرّ من أشباح الماضي.

كان حواره الخارجي معي لا يقل عمقًا عن حواره الداخلي مع نفسه ؛ ذلك الحوار الذي يُشبه صراع الذئب مع صورته في الماء.

قال فجأة :

أتعرف ؟ لقد أرسل إليّ محمد يومًا يدعوني إلى الدخول في دينه. و الله ، لولا أن هدّدني البطارقة علنًا بالموت حرقًا، لكنتُ الآن من أصحاب محمد. ولكن كما تقولون : مكرهٌ أخاك لا بطل.

هنا شعرتُ أن التاريخ ليس دائمًا صراع عقائد ، بل كثيرًا ما يكون صراع مصالح وخوفٍ وجبنٍ إنساني.

هرقل لم يكن يرفض الحقيقة ، بل كان يخشى ثمنها.

"ومن يتهيب صعودَ الجبلِ يعش أبدَ الدهر بين الحفر".

قلتُ في هدوءٍ مثقلٍ بالنبوءة :

لولا أنني لا أحب التدخل في مجرى الأحداث، لقلت لك إن نبوءة بطارقتك ستتحقق في بضع سنين. ستتحطم إمبراطوريتك ، وأنت تشهد. وستدخل القوات الإسلامية القدس ، ويكون صفرنيوس نفسه هو الذي يسلّم المسلمين مفتاحها.

تجمّد وجهه ، واتسعت عيناه حتى خُيّل إليّ أنه يرى المستقبل ماثلًا أمامه.

أما أنت؟

قلتُ متعمدًا إبطاء العبارة.

في رعبٍ سألني :

أنا ؟ أنا ماذا ؟ سأُقتل ؟

قلت :

يا سيد هرقل ، ألم تقل من لحظةٍ إنه لم ينجُ من الموت العنيف إمبراطورٌ واحد من أباطرة بيزنطة ؟ أفلا تريد أن تشذ عن القاعدة ؟

اقترب مني ، وكاد صوته يختنق :

تكلم يا فتى ، هل سأُقتل ؟ ومن سيقتلني ؟ ماريا ؟ صفرنيوس ؟

قلتُ ببطءٍ يضاعف الرهبة :

بل أخوك تيودور . ولا عجب؛ فداء الغدر يسري في الأسرة يا سيد هرقل كما يسري السم في العروق.

صرخ :

لا أصدق ! لا أصدق ! سأشتري ذمم البطارقة جميعًا بالمال.

قلتُ ساخرًا :

مال الضرائب التي تُرهق بها أهل الشام ؟

هنا انكسر شيءٌ في صوته ، وقال في يأسٍ مُرّ:

حتى الرشاوى لم تعد تُجدي. لقد انتهجتُ سياسةً أملتُ بها أن أكسب حب القبائل العربية المقيمة على حدود الشام ، فجعلتُ من زعمائهم قادةً في الجيش الروماني.

ثم التفت إليّ و سأل :

هل تعرف فروة بن عمرو الجذامي ؟

قلت :

وهل يجهله مسلم ؟

قال :

كان قائد القوات العربية التي هزمت المسلمين في مؤتة . رقيته إلى رتبة جنرال. ثم علمتُ ذات يوم من ماريا ما أذهلني . قالت لي ساخرة : أما علمتَ أيها الإمبراطور اللاهي عن إمبراطوريته في مخادع عشيقاته ما فعل فروة ؟

قلتُ متابعًا السرد معه :

وماذا فعل ؟

قال هرقل ، وقد بدا صوته كمن يتذوق الخيانة مرارًا :

دخل في الإسلام.

سقطت الكلمة في القاعة كصخرةٍ في بئرٍ سحيق.

صحتُ مروّعًا :ما كان فروة بالذي يدخل في غير دين النصارى ، وهو الذي أسر أربعةً من كبار صحابة محمد في مؤتة !

قال هرقل :

فقالت ماريا : و هؤلاء الأربعة هم الذين حرّضوه على الدخول في الإسلام. هم الآن أصحاب الكلمة في أرض معان.

ثم جلس منهارًا على عرشه، كأن العرش صار أثقل من أن يحتمله.

في تلك اللحظة ، لم أرَ هرقل الإمبراطور ، بل رأيتُ إنسانًا محاصرًا :

محاصرًا بخوفه ، بزوجته ، ببطارقته ، بماضيه الدموي ، و بمستقبلٍ يقترب كالسيف.

كان يغوص في نفسه غوص الغريق في البحر ؛ يرى كل شيءٍ من حوله ، لكنه لا يملك النجاة.

لقد أدرك، في قرارة روحه ، أن الإمبراطوريات لا تسقط دائمًا تحت سنابك الخيل ، بل تسقط أولًا حين يتآكل اليقين في قلب الحاكم.

إذا فسدَ الرأيُ ضاعتْ دولةٌ وكان خرابُ الملكِ من أهلِه

نظرتُ إليه طويلًا ، وقلت في نفسي :

ما أقسى أن يكون الإنسان قويَّ الجسد ، واهنَ النفس ؛ جبارًا في الميدان ، مهزومًا في مخدعه ؛ مالكَ الجيوش ، أسيرَ الوسائد والبطارقة والنبوءات.

خارج القصر كانت الشام تنام على ريحٍ باردة ، لكن التاريخ كان قد استيقظ.

وفي البعيد ، كانت خيولٌ أخرى تقترب ، خيولٌ تحمل راياتٍ جديدة ، وعقيدةً جديدة ، وعالمًا جديدًا.

أما هرقل ، فقد بقي وحده في تلك القاعة ، يصغي إلى صدى خطاه ، وإلى صوتٍ داخليٍّ يهمس له :

"كلُّ مُلكٍ إلى زوال ، وكلُّ سلطانٍ إلى انتقال".

وهكذا انتهى الحوار ، لا بانتصار أحدٍ على أحد ، بل بانكشاف المأساة الإنسانية الكبرى :

أن الرجل قد يعرف الحق ، ويُبصر المصير ، ثم يعجز عن تغيير خطوةٍ واحدة في الطريق إليه.

ذلك هو قدرُ الملوك حين يصبحون أسرى الخوف.

فُروةُ بنُ عمرو الجُذاميّ
بين صليبِ الهوى ونداءِ الدم

في ليلِ " **مَعان** " الساكن ، حيثُ كانت الريحُ تمرّ على حجارة القلاع الرومية كأنها تهمسُ بأسرار الإمبراطوريات الآفلة ، جلس **فُروةُ بنُ عمرو الجُذاميّ** وحده، وقد أثقلَتْ صدرَهُ هواجسُ لا تهدأ.

كان الليلُ حوله ممتدًّا كسِفرٍ تاريخيٍّ مفتوح ، صفحاته من ظلام ، وحروفه من قلقٍ وذكريات. ولم يكن الرجلُ يومئذٍ قائدًا عاديًّا من قادة الروم ، بل كان روحًا عربيةً تمزّقها هويّتان : **دمُ القبيلة، وصليبُ السلطان**.

أما في القسطنطينية ، فقد كان القصر الإمبراطوري يضجّ بهمهمات السياسة ومؤامرات الكهنة. وقف الإمبراطور **هرقل** عند نافذةٍ عالية ، يتأملُ خرائطَ جنوب الشام ، فيما الراهب **صفرنيوس** يقتربُ منه في ثوبِه الأسود ، كأنّه ظلُّ نبوءةٍ مشؤومة.

قال الراهب بصوتٍ هادئٍ يخفي تحت نعومته حدَّ السيف :

لو سكتَّ عنه ، فلن يلبثَ أهلُ جنوبِ الشام أن يدخلوا في الإسلام ، فيدقّون بابك قبل أن تدقّه قواتُ محمد.

ارتجفَ هرقلُ من وقعِ الكلمات ، لا خوفًا من الجيوش ، بل من الفكرة ؛ فالأفكارُ إذا سرت في القلوب كانت أمضى من السيوف.

سكتَ قليلًا ، ثم قال :

فما الرأيُ عندك يا صفرنيوس ؟

اقترب الراهب أكثر ، حتى بدا صوته كالفحيح :

إن لم تقتل فُروةَ بنَ عمرو الجذامي قتلةً مروّعةً تكون رادعًا لغيره ، لاجتمع المجمعُ المقدّسُ للنظر في أمرك.

هنا شعر هرقلُ أنّ التاجَ الذي يلمع فوق رأسه ليس ذهبًا ، بل قيدٌ من نار.

قال في نفسه:

ما أضعفَ الملوكَ إذا صاروا أسرى الكهنة ، وما أتعسَ العروشَ إذا حكمتها الأهواءُ من وراء الستائر.

ولم يملك إلا أن يذعن ، فقد كان يعلم أنّ **ماريا** ، زوجتَه ، تميلُ إلى رأي الراهب ، بل لعلّها كانت أقربَ الناس إلى قلبه وعقله معًا.

التفت إليها و قال :

وماذا تقترحين يا ماريا ؟

رفعت رأسها في تؤدة ، وفي عينيها بريقُ امرأةٍ تعرف كيف تُدار الإمبراطوريات من وراء ابتسامة :

أرسل إليه ، واطلب حضوره إلى بيزنطية ، لا تُشعره بخوفٍ ولا تذكر له إسلامه بشيء ، حتى إذا جاء فعلتَ به ما تريد.

هزّ هرقلُ رأسه ، وقد أحسّ أنّ خيوط المصير بدأت تنسجُ مأساةً جديدة.

X

الفتنة الأولى: أنطونيتا وصليب الهوى

من كان فُروة ؟ لم يكن مجرد قائدٍ عربيٍّ في جيش الروم ، بل كان رجلًا صنعتهُ التناقضات.

نشأ في **جُذام** ، قبيلةٍ عربيةٍ تضربُ بجذورها في رمال الشام ، يحملُ في دمه نخوةَ الصحراء وكبرياء الفرسان. وكان في شبابه معلقَ القلب بفتاةٍ نصرانيةٍ فاتنة تُدعى **أنطونيتا** ، تتهادى في الكنيسة كما يتهادى النور في زجاجها الملوّن.

حين طلبها ، نظرت إليه بعينين فيهما دهاءُ الحبّ وسلطانُ العقيدة ، و قالت :

و الله لا أكون لك إلا إذا دخلتَ في النصرانية.

صُدم فُروة ، وقال وفي صوته بقايا جذورٍ قديمة :

و أدعُ عبادةَ ذاتِ الأطواق ؟

ابتسمت بسخريةٍ رقيقة:

ويحك يا فُروة، أتعبد شجرة ؟

فأجابها ، وفي صوته حنينُ الموروث :

وجدتُ آبائي يحيطون بها ، ويقرّبون إليها ، ويطوّقونها بعقود الذهب والفضة.

اقتربت منه وهمست :

لو جئتَ إلى كنيستنا، ورأيتَ ما فيها، وسمعتَ تراتيلنا، لقلتَ غير هذا.

وكان الهوى يومئذٍ أقوى من العقيدة ، والرغبةُ أمضى من البصيرة.

فدخل فُروةُ النصرانية ، لا اقتناعًا بصفاءِ الإيمان ، بل **طمعًا في الفتاة ، وثروة أهلها ، ونفوذهم عند الإمبراطور**.

و هنا تصدق الحكمة العربية :

" مَن باعَ نفسَهُ للهوى، اشترى الندمَ بالأعوام ".

X

من الحب إلى السلطة

لم تكن أنطونيتا زوجةً عاشقةً فحسب ، بل كانت امرأةً ترى في زوجها سلّمًا إلى المجد .دفعت به إلى الصفوف الأمامية ، تُغذّي فيه طموحَ السلطة ، وتوقظُ فيه جوعَ المجد ، حتى صار **قائد جيش الروم في " معان "** ، وصاحب الكلمة النافذة فيها.

وكان فُروة كلما ارتفع منصبُه ، أحسّ أن شيئًا من روحه العربية يتآكل.

كان يسمعُ في الليل صوتًا داخليًّا يهمس :

أهذا أنت يا ابن جذام ؟ أهذه غايتك : صليبٌ نلتَه من امرأة، وسيفٌ رفعته في وجه قومك ؟

وكان يهربُ من هذا الصوت إلى صليل السيوف، وضجيج العسكر، وصخب الولائم.

X

مؤتة: اللحظة التي انشقّ فيها القلب

ثم جاءت **مؤتة**. الريحُ محمّلةٌ بغبار الجيوش ، والأرضُ ترتجفُ تحت سنابك الخيل .

دخل فُروة على أنطونيتا ، وملامحه مشدودةٌ كوتر قوس ، و قال:

يا أنطونيتا ، إن هرقل يدعوني إلى التصدي للقوات الإسلامية التي عسكرت عند مؤتة.

رفعت بصرها إليه ، وفي صوتها حدّةُ العقيدة :

وما يمنعك من تلبية رغبة من جعلوك قائد جيشهم ؟

تنهد طويلًا ، كأنما يخرج من صدره تاريخٌ كامل :

يمنعني أنهم قومي ، وفيهم لي أصحاب ، وعلى تلك الرمال لعبتُ صبيًّا ، وبين تلك الخيام كبرتُ رجلًا.

نظرت إليه بصرامةٍ باردة :

ولكنهم أعداءُ دينك وديني ، فاخرج إليهم فإنك منصور.

هنا سكت فُروة ، لكن في داخله قامت عاصفة . كان يسمعُ صوتين يتصارعان :

صوت أنطونيتا يقول : **المجدُ مع الروم** ، وصوت الدم يقول : **الحقُّ مع قومك**.

وفي تلك اللحظة ، انبثق في أعماقه سؤالٌ نفسيٌّ مرير:

هل كنتُ يومًا صادقًا مع نفسي ؟ أم أنني منذ أحببتُها وأنا أعيشُ حياةَ رجلٍ آخر ؟

X

خرج إلى شرفة القلعة ، والليلُ يلفُّ مؤتة بسواده . رفع رأسه إلى السماء ، فرأى النجوم ذاتها التي طالما رآها فوق مضارب جذام

.همس لنفسه:

يا نفسُ ، ما الذي جنيتِ ؟

بعتِ الآباءَ بشهوة ، والقبيلةَ بسلطان ، والروحَ بوهمٍ من مجد.

ثم تمثّل ببيتٍ من الشعر :

وما كلُّ برقٍ لاحَ لي يستفزُّني

ولا كلُّ مَن في الأرضِ أرضاهُ مُنعمَا

أحسّ أنّ المعركة لم تعد في مؤتة ، بل في صدره.

هناك ، في أعماقه ، كانت **أزمةُ الهوية** تبلغ ذروتها:

رجلٌ عربيٌّ صار رومانيَّ الثوب ، نصرانيَّ الاسم ، لكن قلبه ما زال يخفقُ على إيقاع الصحراء.

X

نبوءة التحوّل

في فجر اليوم التاليرِ، وقف فُروة فوق التلّ يتأملُ معسكر المسلمين من بعيد.

كان يرى في صفوفهم بساطةً غريبة ، لا تشبه زخرف الروم ، ولا بهرجةَ القصور . رجالٌ وجوههم مطمئنّة ، كأنهم مقبلون على وعدٍ لا على موت.

قال في نفسه:

هؤلاء ليسوا كغيرهم ، فيهم شيءٌ من اليقين لا تملكه الجيوش الجرّارة.

وتذكّر قول الحكيم :

" إذا دخل اليقينُ القلبَ، هانَ على صاحبهِ الحديدُ والنار ".

عندها بدأت بذرةُ التحوّل تنمو في داخله ؛

تحوّلٌ لا تصنعهُ امرأة ، ولا سلطان ، بل **تصنعهُ لحظةُ صدقٍ مع النفس**.

وهكذا، قبل أن يلتقي السيفان في مؤتة ، كان في صدر فُروة **ميدانُ معركةٍ أكبر**:

معركةُ الإنسان بين ماضيه، وشهوته ، وضميره ، ونور الحقيقة إذا لاح.

" قد يُخدعُ المرءُ بسلطانِ الأرض ، لكنّه لا ينجو طويلًا من سلطانِ ضميره".

وهنا تبدأ مأساةُ قُروة الحقيقية :

ليس حين واجه المسلمين ، بل حين **واجه نفسه لأول مرة**.

على تخوم مؤتة
همسُ الإيمان في قصرِ الظلال

كانت **مؤتة** يومئذٍ جرحًا مفتوحًا في خاصرة الصحراء ، ومرآةً داميةً انعكست عليها هيبةُ الإمبراطوريات وصدقُ العقيدة.

ثلاثون ألفًا من العرب والروم ، اختلطت في صفوفهم السيوف بالعقائد ، والولاءات بالمخاوف ، وأكثرهم على الشرك ، وقليلٌ منهم من نصارى الشام ، يزحفون كالسيل الداهم على **ثلاثمائة من المسلمين** ، خرجوا لا بعددٍ ولا عُدّة ، بل بقلبٍ امتلأ يقينًا حتى ضاق به الجسد.

وحين وضعت الواقعة أوزارها ، وانسحب الجيش الإسلامي بعد أن أثخنته الجراح ، بقيت في فضاء الأرض رائحة الحديد والدم والتراب المبلل بالدموع.

وكان من بين من وقعت عليهم يد الأسر **أربعة من المسلمين،** ساقهم القدر إلى دار **فروة الجذامي** ، ذلك الأمير العربي الذي عرفته تخوم الشام فارسًا داهية ، قاتل الفرس قرب الحيرة ، وعرف للسياسة وجهها الماكر ، وللحرب نابها الكالح.

مضى على مقامهم في الأسر شهران . شهران كانت الليالي فيهما طويلةً كأنها دهر ، وكان الصمت في أروقة القصر أبلغ من ضجيج الجيوش .

في تلك المدة ، لم يكن الأسرى وحدهم من تبدّل حالهم ، بل تبدّل القصر كله .

ففي الزوايا التي كانت تُتلى فيها تراتيل الروم ، صار يُسمع همسٌ خافتٌ للآيات. وفي الحجرات التي كانت تُضاء بشموع الذهب ، أشرقت أنوارٌ أخرى ، لا تُرى بالعين بل تُحَسُّ في الأرواح.

هناك ، في عمق ذلك التحول الصامت ، **أسلمت أنطونيتا**.

لم يكن إسلامها نزوة قلبٍ عابر ، ولا افتتانًا بأسرى غرباء ، بل كان انقلابًا داخليًا هائلًا ، كأن سدود النفس انكسرت دفعةً واحدة ، فانهمر نور الحقيقة في جنباتها.

رأت في المسلمين الأسرى سكينةً لم ترها في رهبان القسطنطينية ، ووقارًا لم تعرفه في بلاط هرقل ، ويقينًا لم تمنحه الفلسفات البيزنطية مهما زخرفت ألفاظها. اختارت لنفسها اسمًا عربيًا ، كأنها بذاك الاختيار تعلن ولادةً ثانية ، فقالت في سرها : **أنا سلمى** . كان الاسم جديدًا ، لكنه نبت في روحها كأنه قديمٌ قِدم الحنين.

ثم ما لبث **فروة نفسه أن أسلم** ، غير أن إسلامه كان أثقل من إسلامها ؛ لأنه لم يكن تحوّل امرأةٍ في قصر ، بل تحوّل رجلٍ يقف بين قبائل العرب وسيوف الروم وعيون الجواسيس .أسلم ، وكتم إسلامه كما تُكتم الجمرة تحت الرماد.

غير أن مثل هذا الأمر لم يكن ليخفى على **جواسيس البطارقة البيزنطيين** في جنوب الشام . فالقصر الذي بدا حصنًا للأمان ، كان في حقيقته شبكةً من الآذان المعلقة خلف الستائر ، والعيون المزروعة في ثقوب الجدران.

في ليلةٍ ثقيلةٍ بالقلق ، كان القمر معلقًا فوق معان كعينٍ بيضاء تحدّق في المصير ، جلس فروة في إيوانه ، وعلى وجهه ظلالُ حيرةٍ لم تعهدها زوجته من قبل.

قال بصوتٍ متهدّج ، كأنما يخشى أن يسمعه الليل نفسه :

لا أدري كيف عرف الإمبراطور بأمرنا يا سلمى ؟

رفعت سلمى عينيها إليه ، وفيهما مزيجٌ من الحب والحكمة والخوف ، و قالت في هدوءٍ موجع :

أكنتَ تأمل يا زوجي العزيز أن يخفى أمرُنا ، ونحن نقوم لصلاة الفجر مع أصحابنا المسلمين ؟ إن قصرنا يموج بجواسيس بيزنطة ، كالبحر إذا هاج لا يُرى لقاعه قرار.

سكت فروة قليلًا ، ومرّت في ذهنه صورٌ خاطفة : الراهب ، الوليمة ، الأعين ، الأسماء ، الهمسات.

ثم قال ، وكأنه يحدّث نفسه قبل أن يحدّثها :

ما فتئتُ أخشى ذلك الراهب صفرنيوس يوم جاء إلى " معان " ، وطلب إليّ أن أقتل أسرى مؤتة . كان في عينيه شيءٌ لا يشبه البشر ، كأن الحقد نفسه قد اتخذ له ملامح إنسان.

تنهدت سلمى ، وعاد بها الخاطر إلى تلك الليلة المشؤومة . كانت الموائد عامرة ، والشموع تترقرق فوق الذهب ، والراهب يبتسم ابتسامةً باردةً كحدّ السكين .

ثم زلّ لسانها - أو لعلها كانت إرادة القدر - حين ناداها فروة باسمها الجديد.

قالت ، وصوتها خفيض كأنها تخشى أن توقظ الذكرى :

حين أولمنا له في قصرنا ، ناديتني باسم سلمى. عندها نظر صفرنيوس نظرته الحقود ، تلك النظرة التي لا تنسى ، وأدرك أني ما طرحت اسم أنطونيتا واتخذت اسم سلمى إلا لإسلامي.

ثم اقتربت منه ، و خفضت صوتها أكثر :

لقد أخبرني أحد رجال الحرس أنه كان يستجوبهم بعد تلك الليلة ، يسأل عن صلاتنا ، وعن الأسرى ، وعن حديثنا في الأسحار.

هنا نهض فروة ، و مشى في الرواق جيئةً و ذهابًا . كان صراعه الداخلي أعنف من كل المعارك التي خاضها. هو الأمير الذي خبر دهاء الروم ، و يعرف أن استدعاء هرقل ليس دعوةَ ودّ ، بل فخٌّ من حريرٍ يخبئ تحته القيود.

دخل إلى أعماق نفسه ، إلى تلك المنطقة التي لا يراها أحد . هناك كان يسمع صوتين يتنازعان روحه : صوتُ السياسة يقول : اذهب ، فالتخلف تهمة . و صوتُ الإيمان يقول : النجاة في الصدق ، ولو كان ثمنه الدم.

وهنا تكلّمت سلمى ، لا بصوت الزوجة فحسب ، بل بصوت القلب الذي يبصر ما وراء الأحداث :

لا تذهب إلى بيزنطية يا فروة. هذه الرسالة التي جاءك بها صاحب هرقل لا تنبئ بخير. إنني أشم فيها رائحة الموت.

توقف عند النافذة ، وأطلّ على ليل " معان " . كان السكون في الخارج ، لكن العاصفة في داخله.

قال بصوتٍ خافت :

وهل أملك إلا الذهاب ؟ إن امتناعي إعلانُ تمرّد ، وتمردي هلاكٌ لنا ولمن معنا.

اقتربت منه ، ووضعت يدها على يده ، كأنها تريد أن تنقل إليه طمأنينة قلبها :

فإن سألك عن إسلامك وإسلامي ؟

ظل صامتًا لحظةً ، ثم ابتسم ابتسامةً حزينة ، و قال :

لعل الدعوة يا سلمى لغير هذا ، فدعينا نأمل خيرًا.

هزّت رأسها بمرارة العارفين ، و قالت :

والله ما يأتي من هرقل خيرٌ أبدًا. الملوك إذا خافوا الإيمان حاربوه ، وإذا عجزوا عن حربه قتَلوا أهله . ولو طاوعتني لخرجنا من ساعتنا هذه ، منحدرين نحو يثرب ، نلحق برسول الله ﷺ ، ففي ظله أمانُ الدنيا ونجاةُ الآخرة.

سكنت الكلمات في قلبه كالسهم . أدار وجهه عنها ، لا لأنه يرفض ، بل لأنه كان يخشى أن ترى في عينيه صدق موافقته وعجزه في آنٍ واحد. و في أعماقه أخذ يحاور نفسه :

أأترك ملكي و قومي و قبيلتي ؟ أأمضي إلى يثرب طريدًا ، بعد أن كنت سيدًا مطاعًا ؟ أم أمضي إلى هرقل، فأكون شهيد الصدق أو أسير الخوف ؟

ثم ارتفع في نفسه صوتٌ كالحكمة القديمة :

" من باع روحه للحق ، اشترى الخلود ".

التفت إلى سلمى ، وقد بدا على وجهه صفاءٌ غريب ، صفاء الرجال إذا اتخذوا قرارًا لا رجعة فيه.

قال :

يا سلمى ، إن الإيمان لا يورث الجبن. سأذهب ، لا لأنني أرجو خير هرقل ، بل لأنني أريد أن ألقى قدري بوجهٍ مكشوف. فإن كانت شهادة ، فنعمت الشهادة . وإن كانت نجاة، فلعل الله يجعل بعدها فرجًا.

اغرورقت عيناها بالدمع ، لكنها لم تبكِ. كانت تعرف أن الرجال العظام لا يُثنون إذا استقام لهم طريقُ المعنى.

قالت بصوتٍ تخالطه نبرة الشعر :

إذا لم يكن للمؤمن الصدقُ مركبًا تكسّرتِ الأرواحُ قبلَ السفائنِ

ثم أردفت :

اذهب إذن، ولكن اذهب وقلبك معلّقٌ بالله، لا بعرش هرقل.

وفي تلك الليلة ، قبل الرحيل ، وقف فروة في مصلاه الصغير، حيث لا شهود إلا السماء . طال سجوده حتى خُيّل لسلمى أن روحه قد سبقت جسده إلى بارئها.

كان يناجي ربّه :

اللهم إنك تعلم أني ما طلبتُ ملكًا ولا سلطانًا ، وإنما طلبتُ وجهك. فإن كان في موتي نصرةٌ لدينك ، فخذني إليك راضيًا. وإن كان في بقائي خيرٌ للمسلمين ، فثبّتني على ما تحب.

وحين نهض ، كان وجهه مغمورًا بسكينةٍ عجيبة.

عند الفجر ، خرج موكبُه الصغير من " معان "، يشقُّ الصحراء نحو الشمال ، بينما كانت سلمى تتابعه بعينين دامعتين من شرفة القصر.

تمتمت لنفسها ، كأنها تكتب بدمعها حكمة الدهر:

"ليس الخوف أن نموت ، بل الخوف أن نموت قبل أن نعرف لماذا عشنا ".

ثم عادت إلى الداخل ، إلى القصر الذي صار بعد رحيله أشبه بجسدٍ بلا روح. لكنها ، في أعماقها ، كانت تعلم أن التاريخ لا ينسى مثل هذه اللحظات ؛ لحظةَ امرأةٍ تركت اسمها القديم لتولد من جديد ، ولحظةَ رجلٍ وقف بين عرش هرقل ونداء السماء ، فاختار أن يكون وفيًّا لصوته الداخلي.

وهكذا ، لم تعد مؤتة مجرد معركةٍ خسرها المسلمون في ظاهر الحساب ، بل صارت بذرةً خفيةً أنبتت الإيمان في قلوبٍ كانت بالأمس من حرس الإمبراطورية.

وصدق الحكيم إذ قال :

" قد تهزم السيوفُ الرجال ، لكن الفكرة التي تسكن القلب لا تُهزم ".

وفي الأفق البعيد ، كانت يثرب تنتظر ، وكان التاريخ يفتح صفحةً جديدة ، تُكتب لا بالحبر ، بل بالإيمان والدمع والدم.

فُروةُ بنُ عمرو
حينَ أقلقَ الإيمانُ عرشَ الروم

لم يكن انتشارُ الإسلام بين نصارى العرب المقيمين على التخوم الشمالية الغربية للدولة الإسلامية الناشئة حدثًا عابرًا في سجلّ الصراع بين القوى ، بل كان زلزلةً نفسيةً وسياسيةً أصابت قلب الإمبراطورية البيزنطية في أعمق مواضعه حساسية.

هناك ، عند تخوم الشام ، حيث تتشابك الرمال بظلال القلاع ، و تتنفّس الطرق القديمة رائحة القوافل والجنود ، بدأ الروم يدركون أن ما جرى في مؤتة ، على الرغم من انكسار الجيش الإسلامي ظاهرًا ، لم يكن هزيمةً بقدر ما كان نبوءةً تاريخية بمجيءٍ لا مردّ له.

لقد فهمت بيزنطة ، بدهاء الإمبراطوريات العتيقة وخبرتها الطويلة في إدارة المستعمرات ، أن الخطر لا يأتي دائمًا من السيوف المرفوعة ، بل من العقائد حين تتسلل إلى القلوب. وكما هي عادة الدول الاستعمارية في كل زمان ، لم تتهيأ للدفاع بجنودها وحدهم، بل جعلت من أبناء البلاد المحتلة أنفسهم وقودًا للمعركة المقبلة ، يذودون عن عروشٍ لا تنتمي إليهم ، ويحرسون أسوارًا شُيّدت على أنقاض كرامتهم.

في " معان " ، تلك المدينة التي كانت مفتاح القدس ، ومفصل الطريق بين جزيرة العرب والشام ، كان **فُروةُ بنُ عمرو الجُذامي** سيدَ الكلمة وصاحبَ النفوذ ، والرجل الذي ظنّ الروم أنه لهم ، فإذا قلبُه قد مضى في طريقٍ آخر ، طريقٍ لا يعود منه المرء كما كان.

أسلم فُروةُ وزوجته سلمى في السر ، كما ينبت الضوء في شقوق الجدران الصمّاء. كان إسلامه ليس مجرّد انتقالٍ من دينٍ إلى دين ، بل

انقلابًا نفسيًا داخليًا ، زلزالًا في أعماق الذات ، حيث تتصارع الذاكرة مع العقيدة ، والولاء القديم مع النداء الجديد.

كان يمشي في أروقة " معان " بوجه الحاكم الواثق ، بينما في داخله رجلٌ آخر يفتّش عن خلاصه. يحدّث نفسه في الليالي الطويلة:

أيُّ قلبٍ هذا الذي يسعُ عرشين ؟ أأكونُ للرومِ وجهًا ، وللإسلام روحًا ؟ إلى متى أُلبسُ الصليبَ على صدري ، وفي قلبي تتلألأ آياتُ التوحيد ؟ وكان يرسل إلى المدينة أخبار الشام خبرًا خبرًا ، كأنما ينسج بخيوط السرّ جسرًا بين الرمال والنبوة. كل حركةٍ في دمشق ، كل همسةٍ في قصر هرقل ، كل استعدادٍ على تخوم البلقاء ، كان يبلغ المسلمين به، في صبر العارف بأن التاريخ يُصنع أحيانًا في الظلّ.

غير أن العيون الإمبراطورية لا تنام طويلًا . فقد بلغ هرقل خبرُ إسلامه ، لا يقينًا مكتملًا ، بل ريبةً تتغذّى من إشاراتٍ صغيرة : تبدّل نظرة ، فتور حماسة ، تلك السكينة الجديدة التي تسكن ملامح المؤمنين. فأرسل في طلبه إلى دمشق ، لا بكتاب تهديد ، بل بدعوةٍ ممهورةٍ بالمودّة ، وذلك هو دهاء الملوك حين يريدون الفتك بلا ضجيج.

دخل فُروةُ وسلمى دمشق ، وكانت المدينة تبدو لهما كأنها عروسٌ متوجةٌ بالذهب والرخام ، غير أن تحت هذا البريق كانت تتخفّى مخالب السياسة. استقبلهما هرقل في قصره استقبال المكرمين ، وفرش لهما من أبهة الملك ما يبعث الريبة في القلب قبل الطمأنينة. أقام لهما الولائم ، وجمع كبار رجال الدولة ، و القساوسة ، وقادة الجند ، وجعل فُروةَ في صدر المجلس كأنما يرفعه ، بينما كان في الحقيقة يضعه في مرمى العيون.

في إحدى الليالي ، وقد انفضّ مجلسٌ ضجّ بالضحك والنبيذ وهمس المؤامرات، جلست سلمى إلى زوجها في جناحٍ يطلّ على حدائق القصر ، والقمر ينسكب على الرخام كأنه دمعةُ ملاك. قالت بصوتٍ خافتٍ ، لكنّه نافذٌ كالسهم:

يا أبا عثمان ، والله ما يكرمنا هرقل هذا الإكرام إلا لأمر. أتراه علم بإسلامنا ؟

رفع فُروةُ رأسه ، وكانت عيناه غارقتين في قلقٍ لم يبح به لأحد. ثم قال بعد صمتٍ ثقيل :

والله لا أدري يا أمَّ عثمان ، غير أن نظرات الإمبراطورة ماريا ، وصاحبها الراهب صفرنيوس ، لا تبشّر بخير . كأنهما يفتّشان في وجهي عن سرٍّ دفين.

سكت قليلًا ، ثم أطرق كأنما يحاور نفسه قبل أن يحاورها :

هل انكشف الأمر ؟ أم أن الخوف وحده هو الذي يجعل الظلالَ جواسيس ؟ لو سألني هرقل ، هل أملك أن أكذب ؟ وهل الكذب في مثل هذا نجاة أم هلاك ؟

ثم قال بصوتٍ أراد له الثبات:

فإن سألني ، فما يضرّنا لو قلتُ له إنني ما زلتُ على المسيحية ، لم أغيّر ولم أبدّل ؟ فإذا عدنا إلى " معان " ، كنتُ أنا ومن أسلم معي من أهلنا طليعةَ الجيش الإسلامي إذا أقبل إلى الشام.

هنا التفتت إليه سلمى ، وكانت في عينيها نارُ يقينٍ لا يطفئها خوف. قالت:

أتحسبه جاء بنا من " معان " ليقيم لنا الولائم ، ويُشهدنا صراع أسرى الروم مع أشرس وحوش الشام من دببةٍ وأسود ؟ لا والله يا فُروة ، الرجل يعلم بإسلامنا، ولو سألني لقلتُ له الحقيقة.

كانت كلماتها تخرج لا من فم امرأةٍ فحسب ، بل من ضميرٍ مؤمنٍ رأى الدنيا على حقيقتها. امرأةٌ خبرت أن الملوك إذا بالغوا في الإكرام فإنما يزيّنون مذبح الضحية.

اقترب منها فُروة ، وقد خالط صوته رجاءُ الزوج وخوفُ القائد :

كلا يا سلمى، بالله لا تفعلي، وإلا قتلَكِ بلا رحمة.

ابتسمت ابتسامةً شاردة ، فيها نورُ الرضا ومرارةُ المصير، و قالت:

وما ضيرُ أن ألقى ربّي شهيدة ؟

ارتجف قلب فُروة ، لا خوفًا من الموت ، بل خوفًا من الفقد. في داخله كانت معركةٌ أخرى ، أعمق من معركة السيوف: معركة الرجل بين حبّه لامرأته وواجبه تجاه الدعوة ، بين رغبته في النجاة معها وبين يقينه أن طريق الإيمان لا يُعبد إلا بالتضحيات.

قال بصوتٍ متهدّج ، كأنما ينتزع الكلمات من صدره:

إن في حياتنا نجدةً لإخواننا المسلمين ، فلنتّقِ من هرقل تُقاةً حتى يأتي الله بأمره.

ثم ساد الصمت. صمتٌ لم يكن فراغًا ، بل امتلاءً بكل ما لا يقال:

هبة المجهول ، وطيف الشهادة ، وخرائط الجيوش التي تتحرك في الخيال قبل الأرض.

وفي تلك الليلة ، جلس فُروة وحده عند نافذة القصر ، يتأمل دمشق النائمة تحت ضوء القمر ، ويغوص في دهاليز نفسه. تذكّر " معان " ، تذكّر رجال جذام ، تذكّر وجوه المسلمين الذين ينتظرون أخبار الشام. شعر أنه لم يعد فردًا ، بل صار عقدةً في نسيج التاريخ. موته أو حياته قد يغيّران مصير جبهةٍ كاملة.

وتمتم كأنه يناجي ذاته :

إذا لم يكن صفوُ الودادِ طبيعةً فلا خيرَ في ودٍّ يجيءُ تكلّفًا

ثم أردف بحكمةٍ كأنها خلاصة رحلته:

من راقبَ الناسَ ماتَ همًّا ، ومن راقبَ اللهَ عاشَ آمنًا.

كان يدرك أن هرقل لا يطارده بجيشٍ ، بل يطارده بعلم النفس السياسي ؛ بالإغراء ، بالمهابة ، بالولائم ، وباختبار الصمت. وكان هو يقاوم ذلك كلّه بإيمانٍ جديدٍ لم يشتدّ عوده بعد ، لكنه كان أصدق من كل عروش الرخام.

وهكذا بدا المشهد أكبر من رجلٍ وامرأة ؛ كان صراعًا بين إمبراطوريةٍ هرمةٍ تعرف أن زمنها يذوي ، ورسالةٍ فتيةٍ تتقدّم من قلب الصحراء لتغيّر وجه التاريخ. وكان فُروة ، في عمق مأساته الإنسانية ، صورةَ الإنسان الذي يقف بين عالمين : ماضٍ يشدّه بالسلطة والذكريات ، ومستقبلٍ يناديه بالإيمان والخلود.

في تلك اللحظة ، لم يكن القصر الدمشقي سوى مسرحٍ كبير، أبطاله بشرٌ يحملون ضعفهم و قوتهم ، وخلف الستار كانت الشام كلّها تنتظر الفصل التالي : هل ينجو فُروة ليكون عين المسلمين في الشمال ؟ أم يسقط شهيدًا فيصبح دمه أولَ بشائر الفتح القادم ؟

لقد كان يعلم، في أعماق وعيه ، أن التاريخ لا يكتبه المنتصرون وحدهم ، بل يكتبه أيضًا أولئك الذين عرفوا متى يصمتون ، ومتى ينطقون ، ومتى يجعلون من أرواحهم جسرًا تعبر عليه الأمم.

مفاتيحُ القلب قبل مفاتيحِ القدس

في قاعةٍ من قاعات القسطنطينية الموشّاة بالذهب ، حيث تتدلّى القناديل كأنّها نجومٌ أُسرت في سقفٍ من الرخام ، وحيث كان الصمتُ نفسه يلبسُ هيبةَ المُلك ، وقف **فروة الجذامي** شامخًا ، كأنّه نخلةٌ من نخيل الشام ضلّت طريقها إلى بلاط الروم.

كان الحديد يلمع على صدور الحرس ، والوجوه جامدةً كالأيقونات ، غير أنّ العاصفة الحقيقية لم تكن في القاعة ، بل في صدر الرجل.

هناك ، في أعماقه ، كان قلبٌ يتنازعه عالمان :

عالمُ الملك والجاه ، وعالمُ اليقين الذي سكن روحه منذ عرف نور الإسلام. كان قد عوّل ، قبل أن يدخل مجلس هرقل ، على الإنكار إن سُئل.

قال في نفسه وهو يطأ بساط العرش القرمزي :

" هي كلماتٌ أقولها بلساني ، وينجو بها الجسد ، أمّا القلب فمعلّقٌ بالله ، و الله يعلم السرّ و أخفى ".

لكنّه ما إن وقع بصره على **صفرنيوس** ، الراهب الماكر ، حتى أحسّ أن الأمر ليس سؤالًا عابرًا ، بل فخٌّ نُسج بخيوط الطمع والحسد.

كان الراهب ، عشيق الإمبراطورة ، يحدّق فيه بعينين ضيّقتين كأنّهما خنجران .ذلك الرجل الذي يطمع في رئاسة الكنيسة البيزنطية ، والذي ستدور به الأيام حتى يقف ذليلًا يسلم مفاتيح **بيت المقدس** راغمًا

إلى عمر بن الخطاب ، أراد الآن أن ينتزع من فروة كلمةً واحدة تقتله في الدنيا و الآخرة.

تقدّم صفرنيوس و قال بصوتٍ ملسٍ كسمٍّ في عسل :

إذا كنتَ يا جنرال فروة الجذامي لم تدخل الإسلام ، ولم تتبع دين محمد ، فلن يضيرك أن تقع في محمد أمامنا ، فتسبّه ، وتلقّبه بالكذاب عدوّ المسيح ، أفتفعل ؟

ساد الصمت.

وفي داخل فروة ، انفتحت هاويةٌ نفسية عميقة. رأى طفله **عثمان** ، ورأى سلمى ، ورأى أرض " معان " ، ورأى دماء القبائل ، ورأى فوق ذلك كلّه وجه الحقيقة التي عرفها يوم سمع القرآن أول مرة.

همس في داخله :

‘‘ أأبيع اليقين بعرضٍ من الدنيا ؟ أأحفظ العمر وأقتل الروح ؟ و هل ينجو من خان نفسه وإن نجا من السيف ؟ ’’

ثم رفع رأسه ، وفي عينيه سكينةُ المؤمن ، وقال برشاقة الواثق:

أيها الراهب الجليل ، لقد كان المسيح لا يبغض إلا السبابين الشتامين ، فكيف تريد مني أن أفعل ما يغضب المسيح ؟

ارتسمت على شفتي صفرنيوس ابتسامةُ ثعلبٍ ظفر بفريسته ، و قال :

ولكن قولك لن يغضب الإمبراطور ، بل يسره. أليس كذلك يا مولانا ؟

أشار **هرقل** بيده ، وقال بصوتٍ مهيب :

أجل أيها الراهب . يا فروة ، أنت من أقرب قادة الجيش إلى قلبي. أقطعنك " معان " وما حولها، وأضمّ دومة الجندل إلى ولايتك ، وتعود إلى أرضك معزّزًا مكرّمًا. فما يمنعك أن تقول في محمد ما يُطلب منك ؟

هنا اضطربت نفس فروة لحظةً . إنها اللحظة التي ينكشف فيها معدن الرجال . تسلّل إلى داخله صوتُ الدنيا :

‘‘قلها ونجِّ نفسك . ولايةٌ واسعة ، وجاهٌ ، وأمنٌ ، وحياة ’’.

لكنّ صوتًا آخر ، أعمق من الخوف ، خرج من قاع روحه :

" ومن يهنِ اللهُ ما له من مُكرم ".

فقال وهو يناور بحكمة العربيّ ودهاء القائد :

يا مولاي الإمبراطور ، كأنك تشكّ في بقائي على دين النصارى؟

قال هرقل ، ناظرًا إليه بعين السياسيّ الخبير:

هذا ما شاع في أرضك ، وإلّا فلم سمّيت ولدك عثمان ؟

تدخّل صفرنيوس سريعًا :

أوليس عثمان صهر محمد ؟

وقال هرقل:

وصاحبه الذي عادَى قومه وتبعَه ، وخلع نفسه من عبادة أجداده.

ابتسم فروة ابتسامةً خفيفة ، كأنّه يحاول تأجيل لحظة الحسم ، و قال :

يا مولاي ، ما أكثر من يُسمَّون عثمان في أرض الجزيرة. أوَلم أذكر لك يومًا أن أول من هجر عبادة الأصنام وترك مكة إلى بصرى ودخل النصرانية كان يُدعى عثمان بن الحويرث ؟

هزّ هرقل رأسه و قال للراهب :

صدق الجنرال فروة يا عزيزي صفرنيوس.

لكن الراهب كان قد عزم على إهلاكه ، فاشتدّ صوته :

إن كان صادقًا ، فما يضرّه أن يقول ما نطلب إليه ؟ قل إن محمدًا كاذب ، وإن هذا القرآن الذي يتلوه على أصحابه لم ينزل من السماء كما يزعم.

هنا شعر فروة أنّ الجدران تضيق ، وأنّ الهواء نفسه صار سيفًا على عنقه.

دار الحوار الداخلي في نفسه كالبرق :

" إن قلتها نجوتُ ساعة ، وهلكتُ دهرًا. و إن صدعتُ بالحق متُّ الآن ، لكنّي أحيا عند الله".

تذكّر قول الشاعر :

ومن يتهيب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر

و قال ، متقيًا ظاهر الموت ، دون تصريح:

أوافقك على ما قلت أيها الراهب.

تهلّل وجه صفرنيوس و قال :

فقل هذا ليسمعه من هنا الجميع.

رفع فروة رأسه ، كأنّه يتهيأ لعبور بوابةٍ بين عالمين.

لك ما تحب أيها الراهب، أشهد أن ..

وقبل أن يتمّ ، دوّى صوت **سلمى** ، زوجته ، كصرخة حقٍّ في وجه العروش:

ويلك يا فروة ! لا تهلك ! لا تقل لهما ما يطلبان إليك، فترتدّ عن دين الإسلام !

كان صوتها كالماء البارد انسكب على جمرة الحيرة في صدره.

التفت إليها ، وفي عينيه امتنانٌ وحبٌّ و طمأنينة ، و قال :

عجبًا لك يا سلمى ، لا تعجلي بزوجك ، وانتظري حتى أنتهي من قولي.

ضحك هرقل مزهوًّا و قال :

ألم أقل لك يا صفرنيوس إن فروة صديقي لم يغيّر ولم يبدّل ؟ قل ما نطلب إليك يا فروة ، قل.

هنا بلغ التوتر ذروته ، وسكنت الأنفاس ، حتى الحرس مالوا بوجوههم.

ورأى فروة في لحظةٍ خاطفة حياته كلّها : فروسيته ، صحراءه ، ابنه ، زوجته ، معان ، ثمّ وجه النبيّ الكريم في خياله ، وصدق الرسالة ، وحلاوة الإيمان.

ثم انطلقت الكلمات من أعماقه ، لا من لسانه فحسب :

أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله حقًّا وصدقًا ، أرسله ربّه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

ارتجّت القاعة.

كأنّ الجدران نفسها سمعت كلمةً لم تعهدها.

صرخت سلمى ، ودموع المجد في عينيها :

بوركت يا أبا عثمان ! بوركت يا أبا عثمان ! بوركت يا شهيد !

فابتسم فروة، تلك الابتسامة التي لا يعرفها إلا من انتصر على نفسه قبل أن ينتصر على عدوّه ، و قال :

ما ظنّك يا سلمى بمن ذاق حلاوة الإيمان ؟ أيرتدّ بعدها إلى الكفر لسيفٍ سلّه هؤلاء الكفار ؟

وهنا صاح صفرنيوس ، وقد انكشفت هزيمته الروحية قبل السياسية :

أسمعت يا مولانا الإمبراطور ؟ أبعد هذا تُبقي على عدوّك ؟

نهض هرقل ، وعلى وجهه غضب الملوك حين تُهزم إرادتهم أمام ضمير رجل ، و قال كمن يختم قدرًا مكتوبًا :

اقتُلوا الرجلَ وزوجَه.

تقدّم الجند.

لكن فروة كان قد تجاوز الخوف.

في تلك اللحظة ، لم يعد يرى السيوف ، بل رأى أبواب السماء مفتوحة.

و قال في نفسه ، في حوارٍ داخلي أخير:

" الآن فقط عرفتُ معنى الحرية . ليس الحرُّ من نجا بجسده ، بل من نجا بروحه ".

ثم تمتم بحكمة العرب :

إذا الإيمانُ ضاع فلا أمانُ ولا دنيا لمن لم يحيِ دينا

وسار إلى الموت ثابتًا ، وسارت سلمى إلى جواره ، كأنّهما يمضيان إلى عرسٍ من نور.

أما صفرنيوس ، فبقي في مجلسه يظنّ أنّه انتصر ، غير أنّ التاريخ كان يخبّئ له السخرية الكبرى :

سيأتي يومٌ يقف فيه عند أسوار القدس ، ذليلًا منكسرًا ، يسلّم مفاتيحها إلى عمر بن الخطاب ، فيتحقق وعد الله ، ويخزى الطغيان.

وهكذا انتهت قصة رجلٍ خسر الدنيا في لحظة ، وربح الخلود في ذاكرة التاريخ.

وما الموتُ إلا جسرُ صدقٍ لأهله

إذا صدقوا في الله فازوا وأفلحوا

على أبواب الشام

هرقل، تيودور، ونبوءة الدم في معان

زُفَّ **فروة الجذامي** وزوجه **سلمى** إلى الفردوس الأعلى ، كما تُزفُّ الأرواح الطاهرة إلى مواكب الخلود ، بعد أن سقيا الأرض من دمهما ما يكفي ليزهر الإيمان في القلوب اليابسة .

كان استشهادهما أشبه بآذانٍ خفيٍّ ارتفع في ليل الشام ، لا تسمعه الآذان وحدها ، بل ترتجف له الضمائر ، وتفيق به النفوس التي طال سباتها تحت ثقل الروم وسياط الرهبان .

ولم تمضِ سوى خمسة أعوام حتى بدت السماء كأنها تطوي صفحةً وتفتح أخرى ؛ صفحةً خُطَّت بالدم واليقين ، وأخرى تتأهب فيها جهنم لتفتح أبوابها لابتلاع **صفرنيوس** و**هرقل** ومن دار في فلكهما من صناع الخديعة والبطش.

كانت الأخبار تتوارد كالسيل من الجزيرة :

رسول الله ﷺ يسير بجيش المسلمين نحو الشام .

كلمة واحدة كانت كافية لتقضَّ مضاجع القصور البيزنطية :محمد. اسمٌ لم يعد هرقل يسمعه كاسم رجل ، بل كقوةٍ تاريخية صاعدة ، كريحٍ لا تُرى ولكنها تقتلع عروشًا وتعيد رسم الخرائط.

في قاعةٍ حجريةٍ واسعة ، تعلوها قبابٌ تتردد فيها الهمسات كأنها صدى نبوءة قديمة ، عقد هرقل **مؤتمره الحربي الثالث** .

المشاعل المعلقة على الجدران كانت ترتجف ألسنتها ، وكأن النار نفسها تسمع ما يُدبَّر فتخشى عاقبته.

جلس الإمبراطور على عرشه الموشى بالذهب ، لكنه بدا من الداخل أقل صلابةً من ذلك المعدن اللامع . كان ذهنه ساحة حرب أخرى ؛ خرائط الشام تمتد في عقله ، الجبال و السهول و الوديان ، المدن و القبائل ، و لاءاتها و خياناتها ، قوتها و ضعفها.

ثم رفع بصره إلى أخيه وقال بصوتٍ مشدود كوتر قوس :

يا تيودور، إن أرض " معان " هي مفتاح الشام . إن أطعمتَ فيك جيش محمد ، وأخرجته من الصحراء إلى الأرض المزروعة في " معان " وما حولها ، أفقدته القدرة على المناورة ؛ فهؤلاء العرب لا يُجيدون القتال إلا إذا ساندتهم الصحراء ، و أظلّتهم رمالها.

تقدم **تيودور** خطوة ، وقد بدا في عينيه تردد القائد الذي يرى ما وراء الخرائط من نبض الناس:

الذي أعلمه من جواسيسي اليهود ، أن المسلمين يتنادون بثأر **مؤتة** ، وأنهم يخرجون بكتلة الجيش ، لا بسرايا متفرقة.

ابتسم هرقل ابتسامةً باردة ، كابتسامة صيادٍ يرى الفريسة تسير إلى المصيدة:

لا تُراجعني يا تيودور . أنا الذي تمرستُ بالحروب ، ودرست أرض الشام شبرًا شبرًا ، وحفظت طباع أهلها كما يحفظ الراهب صلاته. لا تصدم المسلمين في " معان " بجنود الروم ، بل دع **عرب " معان " من بني غسان وأهل أيلة وحِرباء وأذرح** يكونون وقود الحرب. فإذا أوهنوا للمسلمين قوتهم ، لم يصعب على الجحافل الرومانية القضاء على من بقي منهم.

سكت المجلس لحظة ، وكان الصمت أبلغ من الضجيج.

لكن تيودور ، وقد عرف الشام لا من خرائط القصور بل من وجوه رجالها ، قال في حذر :

يا أخي ، إن عرب " معان " أسخطهم علينا مقتل **فروة الجذامي** ، وما أحسب إلا أن أكثرهم قد دخل الإسلام وكتموا إسلامهم.

هنا تغيّر وجه هرقل ، وكأن اسم فروة لا يزال شوكةً في ضميره السياسي ، لا في ضميره الإنساني .كان يعلم أن الدم إذا سُفك ظلمًا صار بذرةً ، وأن البذور لا تموت.

قال وهو يلوّح بيده في ضيق :

سيكون معك **صفرنيوس الراهب** ، إنه ككلب الصيد في اشتمام روح الإسلام بين الناس . من رأيتَ منهم مال قلبه إلى محمد فاقتله قبل أن ينطق.

تردد تيودور ، ثم قال بصوتٍ خافت :

يا أخي، إن ..

فقاطعه هرقل صارخًا ، وقد ارتفع صوته حتى ارتجفت المشاعل:

لا تفتأ تعارضني يا تيودور ؟ كيف يستقيم حال جيشك و الرعب من المسلمين يشل تفكيرك ؟ أتخاف رجالًا خرجوا من صحراء العرب ، أم تخاف الفكرة التي يحملونها ؟

في تلك اللحظة ، انكشفت نفسية هرقل على حقيقتها ؛ لم يكن يخاف السيوف بقدر ما كان يخاف **المعنى** . كان يدرك في أعماقه أن الإمبراطوريات لا تسقط من ضربة سيف ، بل حين تفقد مبرر بقائها في قلوب الناس.

خفض تيودور رأسه ، وفي داخله صراعٌ مرير :

طاعة الأخ الإمبراطور ، أم الإصغاء إلى حدس القائد الذي يشم رائحة الهزيمة في الهواء ؟

قال أخيرًا بصوت المستسلم :

سأفعل ما أشرتَ به يا جلالة الإمبراطور.

تدخل صفرنيوس ، وقد كان وجهه أشبه بقناعٍ من الزهد يخفي وراءه قسوة الجلاد:

لكن الجنود الرومانيين لا يريدون عربًا في صفوفهم.

التفت إليه هرقل سريعًا ، و في عينيه بريق حذر :

ما سمعتهم يقولون هذا.

قال الراهب في مكرٍ خفيض :

بل يقولون إن رواتبهم قد حُبست عنهم بأمر من جلالة الإمبراطورة **ماريا** ، زوجتك.

ساد الصمت.

كانت هذه الضربة تصيب موضعًا شخصيًا في نفس هرقل ، لا موضعًا سياسيًا فحسب. فالرجل الذي خبر ميادين الحرب كان أضعف ما يكون أمام خيوط القصر الخفية ، حيث تتشابك السلطة بالحب ، والمال بالغيرة ، والولاء بالخداع.

قطّب هرقل حاجبيه و قال :

هراء

حين سمعوا أنها تبني سفنًا في بيزنطية لتحمي تجارتنا ، ظنوا أنها تبنيها برواتبهم . إنما تنفق عليها من خزانتها الخاصة.

هنا نظر تيودور إلى أخيه طويلًا ، كأنما يقرأ فيه مأساة الرجل الذي يرى ما يحب ولا يرى ما يُحاك حوله.

يا أخي ، حتى متى تخدعك ماريا ؟ ومنذ متى كان لها خزانة خاصة ؟

اشتعل وجه هرقل غضبًا ، لكنه كان غضب الرجل الذي لامسته الحقيقة في جرحٍ خفي :

أقسم أن أعزلك عن القيادة إن قلت كلمةً واحدة عن زوجتي ! أما مرتبات الجند، فوزع على هؤلاء الساخطين رواتب عامٍ كامل ، وأجزل العطاء للقبائل العربية الخاضعة لسيطرتك تشجيعًا لهم على معاونة جيشنا.

ثم مال إلى الأمام ، وصوته ينخفض حتى صار أشبه بالهمس السام:

إني آمل أن تكون أنت وقواتك قرب القدس ردءًا لي.

ضحك هرقل ، ضحكةً حملت شيئًا من الكبرياء وشيئًا من الوهم ، و قال :

ألم أقل لك إن علمك بالحرب قليل ؟ لن أبقى بقواتي قرب القدس ، بل سأسير بها إلى **البلقاء** ، لأستر تحشدك في " معان " ، ولخداع المسلمين عن حقيقة ما نُعدُّ لهم.

X

في أعماق نفس تيودور ، كانت الكلمات تتكسر كأمواجٍ على صخور القلق.

لقد رأى من قبل جيوشًا كثيرة ، لكنه لم يرَ جيشًا يُقاتل بعقيدة كالذي يأتي من الجنوب. كان يشعر أن المسألة لم تعد معركة أرض ، بل معركة زمنين : زمنٍ يحتضر ، وزمنٍ يولد.

حدث نفسه :

أحقًا نظن أن الذهب يشتري ولاء القبائل ؟ أحقًا يظن هرقل أن الدم الذي أراقه في فروة قد مات ؟ لا ، الدم لا يموت. الدم يصير حكاية ، والحكاية تصير راية ، والراية تصير أمة.

وتردد في نفسه بيتٌ كأنه خرج من حكمة الدهر:

إذا الشعبُ يومًا أراد الحياةَ فلا بدَّ أن يستجيبَ القدرْ

ثم تمتم كأنما يخاطب روحه :

ومن لم يذدْ عن حوضِه بسلاحِه

يُهَدَّمْ، ومن لا يَظلمِ الناسَ يُظلَمِ

لكن قلبه كان يقول شيئًا آخر :

ليس القادم ظلمًا ، بل عدلٌ جديد.

X

أما هرقل ، فحين انفضّ المجلس ، بقي وحده في القاعة الواسعة. اقترب من الخريطة ، ومرر أصابعه على موضع " معان " . كان المكان صغيرًا على الرق ، لكنه في ذهنه صار عقدة المصير.

تناهت إلى روحه صورة فروة الجذامي مصلوبًا ، ثابت النظرة ، لا يلين . شعر بشيء يشبه الوخز في صدره .

هل كان قتله خطأً سياسيًا ؟ أم أن الخطأ الأكبر هو الاستهانة بما يصنعه الإيمان في النفوس ؟

في لحظة صدقٍ نادرة مع ذاته ، همس :

ما هذا الدين الذي يجعل الموت عندهم بابًا ، لا نهاية ؟

لكنه سرعان ما طرد السؤال ، كما يطرد الحاكم شبح الضعف.

X

في الخارج ، كانت الشام تتهيأ لقدرها الكبير . القبائل العربية بين ولاءٍ قديم للروم ، وحنينٍ جديد إلى نور الإسلام .

أهل " معان " يتهامسون في الليالي باسم محمد ﷺ ، ويذكرون فروة كما يُذكر الشهداء الأولون. كانت الأرواح تميل إلى الجنوب ، حيث يجيء جيشٌ لا تحمله المطامع ، بل تحمله الرسالة.

وفي ليل القصور ، حيث ينام الملوك على الحرير ، كان القلق ينهش هرقل.

أما في خيام المسلمين ، حيث ينام الرجال على الرمل ، فكان اليقين يدفئهم.

وهكذا وقف التاريخ على حافة لحظة فاصلة :

إمبراطورية تتقن الخداع و الكمائن ، و دعوة تتقن الصبر و الإيمان.

وما بين " معان " و "البلقاء " ، بين القدس و الصحراء ، كانت الأيام تخبئ للناس جواب السؤال الأكبر:

أيهزم السيفُ العقيدة ، أم تهزم العقيدةُ الإمبراطوريات ؟

وقد صدق الأولون حين قالوا:

دُولٌ إذا ما استحكم الظلمُ في الحشا

هوتْ، ولو قامتْ على ألفِ سيفِ

فما كانت الشام يومئذٍ تنتظر معركةً فحسب ، بل كانت تنتظر **فجرًا جديدًا**.

إلى الجنوب حيث يشتعل اليقين
حكايةُ الالتحاق بجيش المصطفى

وَنَهْرَعُ إلى الجنوب ، لا تدفعنا الأقدام وحدها ، بل تسوقنا أرواحٌ أضرمت فيها الدعوة نارًا لا تخبو ، كأنما الأرضُ من تحتنا تطوى ، وكأن السماء تميل لتصغي إلى وقع خطانا ونحن نلحق بجيش المصطفى ﷺ.

كان النهارُ قائظًا، يسكب على الرمال جمرًا ، غير أن في الصدور بردَ اليقين ، وفي العيون لمعانَ الغاية. كلُّ فارسٍ يمضي كأنه يسير إلى قدره الذي كُتب له منذ الأزل.

ما إن أبصرنا الفاروق **عمر بن الخطاب** ، شامخًا في هيئته ، نافذ النظرة ، حتى استوقفني بصوته الذي يحمل حزم الدولة ودفء الأبوة معًا: **بحثتُ عنك في الجيش يا فتى فما وجدتك ، أين كنت ؟**

تعثّر الجواب في حلقي لحظة ، لا خوفًا من عمر ، ولكن مهابةً من صدقه الذي يعرّي النفوس. ثم قلت، أحاول أن أجعل الكلمات على قدر المقام :

يا أبا حفص ، كنتُ في دمشق أتحسس لكم الأخبار ، وأرقب أنفاس العدو ، وأجمع من أنبائهم ما ينفع المسلمين.

لكن عمر قاطعني ، وقد برق في عينيه شيء من العتاب الحكيم:

أوتحسبنا في حاجة إلى أخبارك يا فتى ؟

لقد علمنا من أمر عدونا ما نريد. علمنا أنهم قتلوا الشهيد **فروة الجذامي** وزوجته **سلمى** ، ولو نظرت خلفك لرأيت ولدهما **عثمان بن فروة** على صهوة جواده في جيشنا ، يطلب بثأر أبيه وأمه وجهَ الله والحق من أعداء الله.

التفتُّ ، فإذا شابٌّ تتوهج في عينيه نارُ الفقد ، وتتماوج في ملامحه قسوةُ الحزن النبيل. كان وجهه صفحةً من مأساةٍ صامتة؛ لا يصرخ ، لأن الثأر الصادق لا يكثر الكلام ، بل يختزن غضبه حتى ساعة اللقاء.

في تلك اللحظة انفتح في داخلي بابٌ من التأمل :

كم تصنع المصائبُ الرجال ! وكم يحوّل الألمُ القلبَ من موضعٍ للدمع إلى منجمٍ للعزم !

و للنفوسِ على الآلامِ منزلةٌ لا يبلغُ المجدَ من لم يركبِ الخطرَا

عدتُ أسأل عمر ، وفي نفسي بقايا قلقٍ من أولئك الذين طالما أوهنوا الصفوف :

ألا يزال من خرج معكم من المنافقين يثيرون المتاعب لكم يا أبا حفص؟

تنهد عمر تنهدَ من خبر طبائع الرجال ، ثم قال :

انكشفت غاياتُ الكثيرين منهم ، فعادوا في خزيٍ يجرّون أذيال الفضيحة. أما من بقي منهم في الجيش فقد أمرهم رسول الله ﷺ باعتزالنا.

ثم سكت قليلًا ، كأنما ينظر في وجوه الغائبين قبل الحاضرين ،

قلت :

فماذا عن أصحابنا الذين تخلفوا ؟ أَلَحق بكم منهم أحد ؟

أجابني بنبرةٍ امتزج فيها الأسف بالأمل :

كانوا أربعةً يا فتى ، لحق بنا رابعهم **أبو خيثمة** ، ولا نعلم عن الثلاثة الآخرين شيئًا حتى هذه اللحظة.

هنا انتفض في داخلي فضولٌ إنسانيٌّ عميق ؛ ليس فضول الخبر ، بل فضول النفس : ما الذي يجعل رجلًا صالحًا يتخلف ؟ أهو ضعفٌ

الجسد ؟ أم فتنةُ الظل والماء و الأهل ؟ أم تلك اللحظة الخاطفة التي ينتصر فيها الإنسان لنفسه قبل أن يستعيدها الإيمان ؟

قلت:

ولمَ تأخر **أبو خيثمة بن عوف**، سيد بني سالم ؟

أشار عمر بيده إلى بعيد ، حيث بدا رجلٌ على بعيره قرب **عبد الرحمن بن عوف** ، و قال :

ها هو ذا، فاذهب إليه يحكِ لك حكايته.

X

مضيتُ إليه، وكان في وجهه أثرُ إرهاقٍ نفسي أشد من وعثاء السفر. فلما سلمت عليه ، نظر إليّ في ضيقٍ لطيف و قال :

ويحك يا فتى ، قد حكيتُ حكايتي لرسول الله ﷺ فقبلها مني ، أيلزمني أن أحكيها لكل من يسأل ؟

ابتسمتُ مداعبًا ، أهوّن ثقل الموقف :

إنما أرسلني إليك أبو حفص عمر بن الخطاب.

فإذا بوجهه ينفرج ، وضحك ضحكةً صافية و قال :

أأرسلك عمر بهذا ؟ ما حسبته يحب الفكاهة قط !

ثم سكت قليلًا ، كمن يهبط إلى بئر ذاكرته ، وقال بصوتٍ هادئٍ تكسوه مرارة التجربة :

يا بني، لم أكن في المدينة حين عزم رسول الله ﷺ على الغزو ؛ كنتُ في تجارةٍ لي في **غطفان** . فلما عدتُ، كان أولَ من لقيني **عبد الله بن أُبيّ بن سلول**.

وهنا تغيّرت نبرته ، وصار السرد مشبعًا بالاسترجاع الحيّ ، كأن الماضي يُبعث من جديد.

رأيتُه مع نفرٍ من أصحابه ، جادّين في بناء مسجدٍ عند مشارف المدينة.

سألته:

ما هذا ؟

فقال في مكرٍ مدهونٍ بالوقار الكاذب :

هذا مسجدٌ بنيناه لمن أحب أن يصلي فيه.

فضحكتُ ساخرًا وقلت :

وما عيب مسجد **قباء** ؟ ما أحسبه ضاق بالمصلين.

قال :

ما بنيناه إلا بعد أن وافق رسول الله ﷺ ، ووعدنا أن يصلي فيه بعد عودته.

توقفتُ عند قوله :**بعد عودته** ، كأن الكلمة صفعتني.

قلت له :

بعد عودته ؟ وهل سافر رسول الله ؟ إلى أين ؟ إلى مكة ؟

فنظر إليّ شزرًا و قال :

عجبًا لك يا أبا خيثمة! ألا ترى المدينة وقد خلت من أصحابك ؟

هنا تنفّس أبو خيثمة بعمق ، ثم أردف ، كأنما يعيد تمثيل لحظة الصدمة :

نظرتُ حولي، فإذا الظهيرة ساكنة ، والأزقة خالية ، والمدينة كأنها فقدت نبضها. فقال :

بل هم مع رسول الله في طريقهم لحرب الروم.

عندها ، يا بني ، شعرتُ أن الأرض تميد بي.

حرب الروم ! و كيف أبقى ؟

كيف يذهب رسول الله ﷺ إلى تلك الفلاة الملتهبة ، وأبقى أنا بين ظل النخيل وبرودة الماء ؟

هنا خفت صوته ، وصار أقرب إلى حديث النفس :

عدتُ إلى داري ، فرأيت زوجتيّ قد هيأتا عريشين ، وبرّدتا الماء ، وأعدّتا الطعام . كان كل شيءٍ يدعو الجسد إلى الراحة ، لكن الروح كانت في مكانٍ آخر.

ثم أسند رأسه قليلًا ، كأنه يستعيد الصراع الداخلي:

"أأخلدُ إلى الظل وقد خرج رسول الله في الحر ؟ أأمد يدي إلى الماء البارد، وشفاهُ المجاهدين يابسة ؟ أيكون نصيبي من الدنيا أوسع من نصيب نبي الله ؟"

ذلك، يا بني ، هو الامتحان الحق :

ليس أن تقاتل عدوك ، بل أن تهزم ضعفك.

وما نيلُ المطالبِ بالتمنّي ولكن تؤخذُ الدنيا غلابا

قال أبو خيثمة:

عندها قلت: والله ما هذا بإنصاف ! رسول الله ﷺ في الضحّ و الريح ، وأبو خيثمة في الظل والماء والمرأة الحسناء ؟ لا والله ! لا أدخل عريشًا حتى ألحق برسول الله.

كان صوته هنا يشتد ، كأن حرارة القرار ما زالت تسري فيه.

أمرتُ براحلتي فشُدَّ عليها زادي ، ثم انطلقتُ وحدي في لصحراء، لا أؤنس إلا دعاءً يتردد في صدري :

"اللهم بلّغني رسولك ، ولا تجعلني من المتخلفين".

سكت هنيهة ، فرأيت في عينيه بريقًا مبللًا بالعبرة.

ولما رآني رسول الله ﷺ مقبلًا ، قال : **كن أبا خيثمة**. فلما دنوتُ، تبسم ﷺ ، وكان لتلك الابتسامة في قلبي من الأثر ما لو وُزّع على أهل الأرض لكفاهم.

هنا شعرتُ أن القصة لم تعد قصة رجلٍ تأخر ثم لحق ، بل قصة النفس حين تتجاذبها راحةُ الدنيا ونداءُ المبدأ.

قلت له متأملًا :

لقد كانت معركتك الحقيقية قبل أن تلحق بالجيش.

فأومأ برأسه و قال :

صدقت. إن أشدَّ الناس جهادًا من جاهد هواه.

ثم أضاف حكمةً بقيت ترنّ في أذني طويلًا :

يا بني، ما خذل امروٌ الحقَّ مرةً إلا أورثه قلبُه ذلًا ، ولا نصره مرةً إلا أورثه الله عزًا.

في تلك اللحظة بدا لي الجيش كله صورةً كبرى للنفس الإنسانية :

فيه الصادق الذي يسبقه قلبه ، وفيه المتردد الذي تغلبه لحظةٌ ثم يسترد نفسه ، وفيه المنافق الذي يبيع الموقف بالكلمة ، و فيه الثاكل الذي يقاتل بجرح الفقد.

X

أما أنا ، فكنت أغوص في أعماقي، أسائلها :

لو كنت مكان أبي خيثمة ، أيّ الطريقين كنتُ أختار؟ أطريق الظل و الماء ؟ أم طريق الرمضاء و اليقين ؟

إن التاريخ ليس حوادث تُروى ، بل مرايا تُعرَض فيها النفوس.

إذا هبّتْ رياحُكَ فاغتنمها فإن لكلِّ خافقةٍ سكونا

وسرنا بعد ذلك ، والجنوب يبتلع خطانا ، والسماء من فوقنا شاهدةٌ على رجالٍ خرجوا لا يحملون السيوف وحدها ، بل يحملون صراعهم الإنساني العظيم :

صراع الإيمان مع الفتور ، و الوفاء مع الإغراء ، و الواجب مع لذة التأجيل.

و لقد أدركتُ يومها أن البطولة ليست في أن تصل أولًا ، بل في أن تنتصر على نفسك قبل أن تصل.

فكم من رجلٍ حضر الصفوف وهو غائب الروح ، وكم من متأخرٍ سبق الجميع بصدق ندمه!

وهكذا مضينا إلى الجنوب ، لا كجيشٍ يسير فحسب ، بل كأرواحٍ تتطهر في لهيب الطريق ، حتى إذا بلغنا جيش المصطفى ﷺ ، أحسسنا أن كل خطوةٍ في الرمال كانت بيتًا من قصيدة المجد ، وأن كل قطرة عرقٍ سقطت كانت شاهدًا على أن التاريخ لا يكتبه إلا الذين يعرفون كيف يهزمون أنفسهم أولًا.

وهكذا ظلّت قصته شاهدًا نفسيًّا واجتماعيًّا خالدًا:

أنّ الإنسان قد يقترب من الهلاك بخطوة كسل، لكنه قد يبلغ النجاة بخطوة صدق.

وأنّ البطولة ليست ألا تخطئ، بل أن تنتصر على نفسك حين تكتشف الخطأ.

في سيرة أبي خيثمة، لا نقرأ حادثةً تاريخية فحسب، بل نقرأ دراما النفس البشرية بين غواية الراحة وصوت الضمير، بين الظلّ المؤقّت ونور الخلاص، بين لذّة البرتقالة ومرارة الندم، حتى إذا انتصر القلب، صار كلُّ ما بعده قصيدةً من التوبة والنجاة.

و لعلي في النهاية أقول أن غزوة تبوك .. لم تكن للثأر ، بل للفتح ، فتح آفاق جديدة للإسلام .

مكث النبيّ ﷺ في تبوك عشرين يومًا، يستقبل الوفود والصلح والجزية، في صورةٍ تؤكّد أنّ الغزوة كانت أيضًا **إعادة رسم للخريطة الرمزية للقوّة في المنطقة**.

ثم عاد الجيش إلى المدينة، لا محمّلًا بالغنائم فحسب، بل محمّلًا بتحوّلٍ نفسيّ واجتماعيّ عميق: انتصار الإرادة على العُسرة، وغلبة المعنى على المادّة، وارتقاء الجماعة من مجرّد تجمّعٍ بشريّ إلى أمّةٍ ذات رسالة كونيّة.

وهكذا مثّلت غزوة تبوك آخر الغزوات النبويّة، لكنها كانت من أعمقها أثرًا في بناء الإنسان المسلم؛ إذ كشفت معادن النفوس، وفرزت الصادق من المنافق، وربطت بين الجهاد الخارجيّ وجهاد الداخل، بين مشقّة الطريق وتزكية الروح، لتبقى في الوعي الإسلاميّ نموذجًا خالدًا لكيف تُصنع الحضارات في لحظات الشدّة، وكيف يولد النور من رحم العُسرة.